

حَضَارَةُ الْعَرَبِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ

رسائل تاريخية في قالب خيالي بديع -

وضعتها
الْكَاتِبَةُ لَيْلَى

د. السيد عبد الرحمن البرقوثي

صاحب مجلة البيان

على لسان رحالة مصري رحل به الى الاندلس في منتصف القرن الرابع
الهجري ونحله هذه الرسائل التي اودعها علم الاندلس كله - في
روض من البلاغة موزق مشرق طلق نضير - ولون
من البيان يكاد لحلاوته يؤكل بالضمير

حقوق الطبع محفوظة

١٣٤١ - ١٩٢٣

تطلب من المكتبة التجارية بأبول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية بشارع عابدين بحارة فايد نمرة ٣ بمصر

خزانة العرب في الأندلس

رسائل تاريخية في قالب خيالي بديع -

وضعتها
الكتاب المشهور

د السيد عبد الرحمن الجبروتي

صاحب مجلة البيان

على لسان رحالة مصري رحل به الى الاندلس في منتصف القرن الرابع
الهجري ونحله هذه الرسائل التي اودعها علم الاندلس كله - في
روض من البلاغة موزون مشرق طلق نظير - ولون
من البيان يكاد الحلاوته يؤكل بالضمير

حقوق الطبع محفوظة

١٣٤١ - ١٩٢٣

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر
إعدادها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية بشارع عابدين بحارة فايد نمرة ٣ بمصر

اهداء الكتاب

إلى روح أستاذي الأمام الشيخ محمد عبده - إلى
الرجل العظيم الذي لم تقع عيني على مثله رجاحة عقل وسجاجة
مُخلِّق وعبقريّة ذهن وسموّ نفس وعظمة رُوح وهمة
تناطح النجوم . وكرماً يشامخ الغيوم . وأدباً إلهياً من
الطراز الأول حتى لكانما نشأ في حضانة الله - إلى الرجل
كل الرجل الذي يحب معالي الأمور ولا يحب سفسافها

تلذ له المرؤة وهي تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام
إلى الرجل الذي لم يفرع إليه فازع ولم يستصرخه
مستصرخ إلا كان الصراخ له، انجاز ما أمله - إلى الرجل
الذي لو مد الله في أجله . وبقي إلى أن رأى ثمار غرسه
ونتاج عمله . لكان الأديب اليوم شأن غير هذا الشأن ، وحال
غير تلك الحال ، لأنه عظيم فهو يحب كل عظيم ويمدحه ويشبّه
وقدا ، ولا يحقد ولا يحسد لأن رئيس القوم لا يحمل الحقدا
ذهب الذين يعاش في أكنافهم . وبقيت في خلف كجلد الجرب

طالم أشبهوا القروود ولكن خالفوها في خفة الأرواح
لهم حلال حسن فمن بيض وأخلاق ممجن فهم سود

أنا في أمة تداركها الله م غريب كصالح في غود
إلى روح أستاذي الذي علمني ورَبِّي وأدبني فأحسن بحمد
الله نأديبي - فكنت خَرَّيجَه ولا نخر، وكنت غرس يديه
ونعمة عين . وكما أرسل الله إلى صَفِيَّه وخيرته من خلفه
سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وتسليماته عليه مـ ليكن
كرمين سقطا عليه كسقوط الندى وهو يلعب مع اخوته
من الرضاعة خلف بيوت ظُئره رضوان الله عليها .
فأضجماه فاستخرجوا قلبه فشقاها فتناوشا منه علقه سوداء
ثم غسلا قلبه بثلجها السمارى حتى أنقياه ، وكان ذلك
كدرجة لمقام النبوة ومهمة الرسالة العظمى - أرسل الله
إلينا هذا الأمام ، وطلع علينا كما يطلع البدر في دجنات الظلام
ونحن في الأزهر نتمسف الطريق ، ونتقجم تلك الجرائم
فهدي من ضلالة ، وانا من ظلمة ، وانتاشنا من مَضيق
ومُرتَظم ، وأقامنا على المناهج النيرة ، والمحاج الواضحة
وغسل عقولنا حتى أنقى ادراها ، ثم فاض علينا فيض علمه وأدبه
فإلى روح هذا الامام أهدي هذا الكتاب مـ

عبد الرحمن البرقوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حامداً ومصلحاً

« أما بعد » فهذا كتاب وضعته قديماً وأسميته « حضارة العرب في الاندلس » . ولقد أشرب قاي منذ طراءة العمر وربعان الصبي وجن النشاط حب التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ هذا الفرع الاندلسي منه خاصة . - فكان مما عنيت به فضل عناية ، وكان مما أولمت به الولوع كله ، النظر في تاريخ الاندلس وحضارة العرب بها منذ افتتاحهم اياها الى أن تأذن الله لهم ، وكتب عليهم الاسبانيون ، وكبح لهم لدمر وجهه ، وتقلصت ظلال تلك الحضارة بعد أن فاء بها الفيء على شرق الارض وغربها . - وبلغ من همي بهذا التاريخ أنني بعد أن استوعبت كل ما وصل اليي من تأليف العرب ذهبت أتمس ما كتبه مؤرخو الغرب ومستشرقوه على ذلك المصر حتى اقتنيت أمهات أسفارهم وعهدت الي كثير من أصدقائي الذين يحسنون الفرنسية والانكليزية أن ينقلوا الي كل ما يتصل بغرضي من مباحث هائيك الكتب ، ومضيت في ذلك ومضوا فيه حتى استجملت الكثير وما يزيد على الكثير . ثم

خطر الدهر من خطراته ونشأت ظروف أواخر سنة ١٩١٠ ميلادية
أى قبيل اخراج « البيان » اضطرتنى أن أزايل القاهرة وأقيم
في بلدى - مسقط الراس . ومكان الغراس . فأفسح لى ذلك فى
الوقت ، ومد لى فى النظر ، وبسط فى مطارح التأمل ، وأنى
لأتقرى يوما تاريخ أبى النداء اذ صدف أن أخذت عىنى هذا الخبر
الذى لاحفل له ، والذي يقتحمه فى العادة النظر ، ولا يكاد يتلفت
اليه ، أو يتوقف عليه ، وهو ما رواه من « أنه فى سنة ٣٤٥
هجريه عمل عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس مركبا كبيرا وحشد
فيه كثيرا من بضائع الاندلس وأرسله الى بلاد المشرق لتباع
هذه البضائع هناك وتستبدل منها بضائع مشرقية » . ففتحت على
هذه العبارة أبوابا من وراء أبواب ، وامتدت الكلمة فى نفسى
حتى خرج من حروفها كتاب ، وألهمت أن أضع ما جمعت من
علم الاندلس كله فى صدر رحالة مصرى يقوم من الاسكندرية
وافداً الى الاندلس فى مركب الناصر هذا - فهو يرى ويسمع
ويقص ويدون ويصف ويستعين بما يلمه وما يراه وما يفتق له
الخطاير ويهيه الفكر - فى رسائل يضمها وصف تلك الحضارة
على اختلاف ألوانها ، وشتى فنونها ، وصف مؤرخ أديب فيلسوف
يرحل للتاريخ وفلسفته فيدرسه فى كتبه وفى مواضعه ورجاله

وأساببه وحوادثه ، وبذلك يستجمعه من أطرافه ، ويحويه من أكنافه ، وتم التقدير على أن أضع على لسان هذا الرحالة الذى ذهب الى الاندلس وأقام فيها زهاء عشرين عاما خمس رسائل يكون عنوان الاولى « من الاسكندرية الى المرية » والثانية « من المرية الى قرطبة » والثالثة « مقامي في قرطبة » والرابعة « العلوم والآداب والفنون فى الاندلس » والخامسة « تقويم الاندلس وتاريخها » ... وهو بديهي أنه لا يقدم على هذا العمل مقدم الا بعد أن يحيط بتاريخ هذا العصر علما، ويقتله كله دراية وفهما ، فليس يكفيه أن يكون ملما بتاريخ الاندلس ، ولا بتاريخ الدول الاسلامية لهذا العهد ، بل لا بد مع ذلك من أن يكون واقفاً على تاريخ الامم الاخرى المعاصرة ، والتي لها علاقة بالدول الاسلامية اذ ذاك مثل الدولة الرومانية وما اليها . وكذلك درست تاريخ هذا العصر من جميع نواحيه . ثم وضعت يدي في هذا العمل ، وأخذت فى كتابة هذه الرسائل ومضيت لطيتى حتى اذا سرت شيئاً طراً عليّ ما أجهلنى الى القاهرة وفى تلك الآونة طلع « البيان » وطفقت أنشر فيه نبذاً من هذا الكتاب . وكان المنتظر أن يكون « البيان » بحيث يشرى باتمام الكتاب ونشره كله بين صفحات هذه السنوات التى خلت ، ولكن جاء الامر

على حد ما قيل : طلبت بك الكثير فازددت قلة : — فلقد استبدني
هذا البيان ، واستأثر علي بنفسي استئثاراً ، وتدفق في أذاته ،
وألح في سطواته ، حتى أنه بعد أن اتهم الوفراً أكلاً وشرباً ،
ألوى بنفسى (١) قلباً ولباً ، وتركنى لا أفكر الا فيه ولا أتشاغل
الا به .

فلو ان لى تسمين قلباً تشاغل

جميعاً فلم يفرع الى غيره قلب
وكذا مصير كل من يمتحن الادب فى الصحف وبخاصة اذا كان
هو صاحب تلك الصحيفة له غنمها وعليه غرمها ، ببلد سقط فيه
نجم الآداب الرفيعة وطاش سهمها ، وقدما قيل لحكيم ان فلانا
رجل عاقل فقال هل هو متزوج فقيل له نعم فقال : اذن ذهب
عقله ! وعلى هذا القياس لو قيل لى ان فلانا فيلسوف أو عالم أو
أديب لقلت هل هو صاحب مجلة فى مصر فاذا قيل نعم قلت اذن
ذهب والله فى الذاهبين . فإنه اذا كان المتزوج يجد من هم واحدة
وما يكون منها ما لا يدعه لهم نفسه فيذهب بذلك عقله أو بعض
عقله فان صاحب المجلة يصيبه هم المئات الى الالوف ممن يقرؤن
ولا يفنون بحق ولا عهد فهو ينفق من نفسه وما أعده لنفسه

وهم يحقونه محققاً حتى ينقص بهم على زيادتهم ويقل على كثرتهم
ولا يزال ذلك شأنهم وشأنه لا هو يتركهم وعليهم حقه ولا هم
يدعونه في غير هذه الحالة ، وبذلك يذهبون بفلسفته وعلمه وأدبه
مذاهب العقم ، ويبلونه بالاغتمام ، ولا عقل مع غم ، ولا قلب مع هم
فذهب اذن والله صاحب المجلة وكان من ضياع العقل في وزن من
تزوج لا بزوجة واحدة بل بألف زوجة ..

«وبعد» فهذا هذا - وفي هذه الاونة في هذه الفترة التي
احتجب فيها البياض ، والتي وجدت فيها نفسي - جرى بيني وبين
أحد أفاضلنا يوماً حديث أفضى الى ذكر هذا الكتاب . وأنست
من هذا الفاضل رغبة حارة صادقة في تمامه ، وطبع ما تم منه الى
الآن في الاقل على حدة ، فكان جواب الفعل أسبق من جواب
القول ، وقدمت هاتين الرسالتين الى المطبعة على أن أردفهما قريباً
ان شاء الله بالرسائل الثلاث الباقية . وهاتان الرسالتان يكادان
يكونان كتاباً مستقلاً . يصح أن ينزلا من الرسائل التالية منزلة
مدخل الكتاب من الكتاب .

والآن يجمل بنا أن تقدم بين يدي الناظر في كتابنا هذا
تنبيهات يخلق به أن يلحظها ويتنبه عليها واليكها :

يلحظ قارئ هذه الرسائل في بعض المواطن شيئاً يشبه أن يكون حشواً أو زيادة أو فضولاً أو شططاً أو خروجاً عن الموضوع أو ما شئت منه. وذلك مثل كلامنا على البحر « انظر صفحة ٧٨ » وكلامنا على حب الوطن « صفحة ١٢٠ » فليعلم القارئ أنا لو قصرنا كلامنا في هذه الرسائل على البحث التاريخي البحت دون تطرّبها بمثل هذه المعاني الغضة اللينة المستطرفة التي تستروح إليها النفوس، وترى على القارئ عازب نشاطه (١) - جاءت كزة جافة ثقيلة مملة . وليس للكاتب اليوم في أي باب من أبواب العلم والادب منتدح عن أن يداور القارئ على القراءة ويراوغه (٢)، ويحتال بكل ضروب الحيل التي تغريه بالقراءة وتشوقه الى الاطلاع ما دامت الرؤس كأن بها خبالاً ، والنفوس كأن بها دائماً ملالاً على أنه اذا كان الغرض الذي نترامي فيه (٣) بهذه الرسائل هو وصف حضارة العرب فلماذا لا نهتبل هذه الفرصة ونتصدي - ما وجدنا الى ذلك سبيلاً - لكل معنى من معاني هذه الحضارة ومبلغ ما وصل اليه العرب في هذا المعنى، ومن ثم لم نتعرض لمثل ما تعرضنا

(١) تريح ترجم وتعيد وعازب غائب (٢) داوره على كذا وراوغه أرادته عليه (٣) كقولهم اليوم نرمي اليه

عبثاً ، وإنما لنصف لك كل ألوان الحضارة العربية على اختلافها
أولاً وبالذات ، ولننفي عن القارئ ما عساه يلم بساحته من
السأم والملال ثانياً وبالعرض

٢

قد يلمح القارئ من أسلوب هذه الرسائل وطريقة الوصف
والتفكير فيها مسحة من روح جيانا ، ويراها مصطبغة بصبغة عصرنا ،
وهذا وإن لم يكن في مكننتنا اجتنابه لأننا ضرورة كوننا من
أبناء هذا الجيل وامتزاج روحه منا بالدم واللحم لا نستطيع
الخروج عن كيانتنا ، إلا أنه مع ذلك نكاد نكون قد قصدنا
إليه قصداً لأنه يدخل في باب التطرية التي لا بد منها تقياً للملال
الذي قد يعرف القارئ إذا نحن توخينا أسلوب تلك العصور
توخيأتها ، ولأنه لولا ذلك لما كان ثمة فرق بين هذه الرحلة وبين
رحلة قديمة يضعها رحالة حقيقى في هاتيك العصور ، بيد أننا مع
ذلك قد احتفظنا جهد الاستطاعة باصطلاحات العرب في أسماء
الأعلام والبلدان والاقطار والممالك وما إلى ذلك مع قرننا
بأممائها التي تعرف بها اليوم أما في هامش الرسائل وأما في صلبها
بين أقواس

٣

كل ما كان لغيرنا ونقلناه بلفظه أو بمعناه نهنا إليه في هامش الكتاب ومن ثم يكون كل ما لم تنبهه إلى مصدره فهو لنا معني ولفظاً، اللهم الا ما نتمثل به من بيت مشهور أو مثل سائر أو أبيات قد عرف قائلها . على أنا اذا كنا في موضع تاريخي أو وصف جغرافي قد نهنا إلى المصدر الذي اعتمدنا عليه ففي الغالب الكثير تكون العبارة لنا وانما الذي لغيرنا هو العصاراة التاريخية أو الجغرافية وما إليهما ، وقد نساهو عن التنبيه إلى المصدر اما لاننا لم نقيده مانقل حين النقل فلم نهتد إلى موضعه بعد ذلك واما لان مانقله من غيرنا انما نقلناه بواسطة حافظتنا .

٤

قد نتمثل في بعض الاحايين ببيت أو أبيات تأخرت أوقات قائلها عن زمن الرحلة مثل تمثنا بأبيات لابن خنواجه أو لابن حمد يس مثلاً ونحن فانا لانرى بأساً في ذلك مادامت هاتيك الأزمان متقاربة متشاكلة وحسبنا التنبيه إلى ذلك في هامش الكتاب

« أما بعد » فيرحم الله عمرو بن بحر اذ يقول : لا يزال المرء

— ك —

في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً - ويرحم الله القائل :
عرض بنات الصلب على الخطاب ، أهون من عرض بنات الصدر
على ذوى الألباب . فاذا كنت قد وفقت أو قاربت التوفيق في
هذا الكتاب والا فحسبى أنى لا أوجه دأ ولا أدخر وسعاً ، وأنى
أخلص النية وأراقب الله في كل ما عمل ، على أنه لا كمال في الأرض
وانما الكمال لله وحده ، واليه سبحانه الرغبة في أن يحوط كل ما أعمل
بكلامته ، وأن يغشيه دائماً بالقبول انه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن البرقوني

رجاء

نرجو القارئ الكريم - ونلج في هذا الرجاء - أن يتناول قلمه الآن ويصحح هذه الأغلط المطبعية التي يراها ويرى صوابها في هذا الجدول قبل أن يمضى في قراءة الكتاب

صفحة سطر	خطأ	صواب
٩	رواه	رواة
١٨	هاروتُ ينفثُ	هاروتَ ينفثُ
	« في بعض النسخ »	
٢١	كل صنعا	كل ما صنعا
٢٥	ان المسلمون	ان المسلمين
	« في بعض النسخ »	
٣٩	وفي مدافعه	وفي مدافعة
٤١	وماليها	وما اليها
٤٣	خمس عشر	خمس عشرة
٤٥	الشأن	الشان
٤٩	للبيع	للمبتاع

صفحة سطر	خطأ	صواب
٥٠ ١١	ايبات	ايباتا
٥١ ١٣	المحد	المجد
٥٧ ٣	ومدينة مسيني	وبين مدينة مسيني
٥٧ ١٦	سيغه	سيصفه
٦١ ١٠	في الجزيرة	في الخريدة
٦١ ١٥	اما	أنّا
٦٣ ١٢	منزّه	متنزّه
٦٦ ٦	ومتورقة	ومنورقة
٧١ ١١	أن المركب	أن هذا المركب
٧٦ ١٠	شأنا	شانا
٧٧ ٣	من المفضوب عليهم	إلى المفضوب عليهم
٧٨ ٧	لثلاث عشر	لثلاث عشرة
٨١ ١	اظنه	ما اظنه
٨٣ ٨	او تقطّع	أو تقطّع
٩٥ ٤	والنبات	والبنات

صفحة سطر	خطأ	صواب
١٠٦ ١٤	ابن اللبان	ابن اللبابة
١٠٩ ١٣	يمتازون	ينمازون
١١٠ ١٤	لقاء	تلقاء
١١٧ ٧	وتعلقت	وتعلقت
١١٩ ١٦	تذبيبه	تذبيبه
١٣٤ ٥	صلوات الله عليه	صلوات الله عليه اذيقول
١٣٧ ١٢	المرء	المرء
١٥٦ ٢	الطبيب	الطبيب
١٦٢ ٧	وينتقل من هذا العالم	وينتقل بالانسان من هذا العالم
١٦٤ ١٢	ماه	ماء
١٦٦ ٥	الاصطول	الأسطول
١٦٩ ٢	والقواير	والقراير
١٦٩ ٤	والشنديات	والشنديات
١٧٣ ٩	وبأبي عبيلى	وبأبي علي
١٧٤ ٩	ماجنه	ماجنة

السُّنَنُ التَّالِيَةُ لِأَوَّلِهَا

صحة الإسكندرية إلى المريّة

كان انفصالي عن الاسكندرية الموفرد إلى الأندلس
بسُحر ديوّم من أيام سنة خمس وأربعين وثلثمائة من هجرة
المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الموافقة سنة ست وخمسين
وتسعمائة لميلاد السيد المسيح صلوات الله عليه ، وذلك في
سفينة عدّاية ^(١) لأمر المؤمنين بالأندلس عبد الرحمن

المريّة ويسمىها الأفرنج Almeria ثغر من ثغور اسبانيا
واقع على البحر الأبيض المتوسط . وكانت زمن هذه الرحلة
مرمي للسفن القادمة من المشرق القاصدة إلى القطر الأندلسي
(١) أي ضخمة من قول طرفة بن العبد يصف السفينة

عدولية أو من سفين ابن يامن . يجورها الملاح طوراً ويهتدى
قال في اللسان : قال الأصمعي العدولي من السفن منسوب
إلى قرية بالبحرين يقال لها عدولي ثم قال وقيل إنما هي منسوبة
إلى موضع كان يسمى عدولة نقول ولعل هذا هو الأقرب

الناصر ، لم تر قط عيني مثلها ، وكان عبد الرحمن فيما بلغني
مُولعاً بإنشاء السفن والأساطيل ، فأنشأ هذا المركب
الكبير الذي لم يعمل مثله وسير فيه أمتعة وبضائع إلى بلاد
المشرق لتباع هناك وتستبدل بها بضائع من هاتيك البلاد
فمر بكثير من ثغور البحر الشامي وكان آخر ما مرّ به
الاسكندرية . (١)

* * *

الى الصواب ولعل عدولة هذه هي أدولي وقد جزم بذلك
وبأن السفن العدولية منسوبة الى أدولي هذه استاذنا الدكتور
نالينو المحاضر كان بالجامعة المصرية قال البستاني في دائرة
معارفه : تحت كلمة « آدوليس أو أدولي » هي مدينة قديمة في
الحبشة في جون من البحر الاحمر على الشاطئ الغربي وتسمي
الآن زويلة وأركيكو وكانت في القرن السادس للميلاد ميناء
لاكسوم

(١) جاء في كتب التاريخ عن هذا المركب وعن ولوع الناصر
بانشاء المراكب والاساطيل ما لا يكاد ينحرف عنه كلامنا -
راجع تاريخ ابي الفداء وابن الاثير وابن خلدون

ولما نزلت هذا المركب رأيت فيه كثيراً من أهل
بغداد والموصل والشام ومصر يريدون الوفود إلى الاندلس
— ومن عرفت منهم عالم لغوى أديب من أهل بغداد
يعرف بأبي علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي،^(١)
وفقيه مصر أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي الزهري،^(٢)
وفقيه مقرئ يُسمى أبا الحسن علي بن محمد بن اسماعيل بن
بشر التيمي الانطاكي،^(٣) وتاجر رحلة من أهل الموصل
يعرف بابن حوقل،^(٤) وقينة اسمها فضل المدنية^(٥) —

-
- (١) دخل الاندلس أبو علي القالي سنة ٣٣٠ هجرية أيام
عبد الرحمن الناصر، وسنة ٣٣٠ وسنة ٣٤٥ قريب من قريب
(٢) دخل الاندلس هذا الفقيه المصري العظيم سنة ٣٤٣
قال ابن حيان فأكرم الناصر مشواه وكان فقيه أهل مصر
(٣) قال ابن الفرضي أدخل الانطاكي على الاندلس علماً جماً
وكان اماماً في القراءات لا يتقدمه أحد فيها مات بقرطبة سنة ٣٧٧
(٤) وفد ابن حوقل على الاندلس حوال سنة ٣٦٠ وممر
كذلك بصقلية (٥) جاء في نفح الطيب انه اشترى للامير
عبد الرحمن صاحب الاندلس قينة اسمها فضل والظاهر أنه يعني

وأصل هذه الفينة كما أخبرني لاحدى بنات هرون الرشيد
ونشأت وتعلمت ببغداد ونهدت من هناك إلى المدينة
المشرفة فازدادت ثم طبقتها في الغناء ثم اشترت الأمير عبد
الرحمن مع صاحبة لها تسمى علم المدنية وصواحه - اخرى ،
وقد عقدت الغربية بينى وبين فضل صحبة - لأن الغريب
كما قيل للغريب نسيب - فرأيت منها أدبية ذاكرة
حسنة الخط رابية للشعر حلوة الشمايل معسولة الكلام
- ذلك إلى حدقها في الغناء ولباقها به مع الظرف الناصع ،
والجمال الرائع فكانت - صنع الله لها - سلوتنا في سفرنا
وكانت تجلو هموم السَّفَر^(١) ومرض البحر ، بما تنفثه يديننا
للفينة بعد الفينة^(٢) من سحر الحديث الذى يأخذ بالآلِباب
وبرتفع له حجاب القلوب ، فهو كما قال أبو حية النميرى

عبد الرحمن الاوسط لاعبد الرحمن الناصر فليلاحظ ذلك ، على
أنه جاء في كتب التاريخ أنه كان في هذا المركب - مركب الناصر -
جوار مغنيات اشترين للناصر من المشرق (١) أي المسافرين
(٢) الحين بعد الحين ومثلها الخطرة بعد الخطرة

فيمن يقول

حديث إذا لم تخش عينا كأنه

إذا ساقطته الشهد أو هو أطيّب

لو انك تستشفى به بعد سكرة

من الموت كادت سكرة الموت تذهب

ولما أقلمت بنا السفينة من مرسى الاسكندرية
تحركت الريح الشرقية نسيماً فاتراً عليلاً ثم غشى البحر ضباب
رفيق سكنت له أمواجه، فعاد كأنه صرح ممرّد من قوارير،
فبقينا لاعبين على صفحة ماء نخاله العين، سبيكة لجين، كأننا
نجدول بين سماءين، فكانت لذلك منظر هو قيد النواظر
وغُلَّ (١) الأبواب وشرك النفوس - تجلي لنا فيه جمال
الكون وصانعه، فكنت ترى السماء صافية الأديم، زاهرة
النجوم، وكوكب الزهرة مقبلاً من ناحية المشرق يحفه
الجمال والجلال، فلولا التقي لقلت جلت قدرته، وترى
البحر كأنه مرآة مصقولة تنظر السماء فيها وجهها، فكاننا

(١) الغل القيد

الماء سماء ، وكأن السماء ماء ، وترى النوتية مجدين في التجذيف
على حال لو هممت بتشبيهها بشيء حسن لا اضطررك حسنها
إلى رده إليها .

مجادف كالحيات مدت رؤسها
على وجل في الماء كي تروى الظما
كما أسرعت عداً أنامل حاسب
بقبض وبسط يسبق العين والفما^(١)

وفيما بين ذلك تسمع فضلاً تغنى في قبتها مواليا بغدادية
ساحرة وبين يديها مزهر تقلدته أطرافها .
تميت به ألبابنا وقلوبنا
مراراً وتحمين بعد همود
إذا نطقت صحننا وصاح لنا الصدى
صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله
كأنا من الفردوس تحت خلود

(١) البيتان لأبي عمرو يزيد بن أبي خالد اللخمي الأشبيلي الأندلسي

ومضى على ذلك ثلاثة أيام بلياليها كما من أوقاتها في
بُلْهَنِيَّة (١) من العيش ، وغفلة عن أعين الدهر ، ووصال
أخضر ، ونعمى لا يشوبها بؤس ولا كدر ، فلما كان اليوم
الرابع - ولا كان - هبت علينا ريح عاصف رمتنا بها
الأقدار من حيث لا ندرى ، فأرغى البحر وازبد ، وأبرق
وأرعد ، وتلاطمت الأمواج ، واهتاجت إما احتياج ،
وصار بها عمرك الله مثل الجنون ، وتراعت في صورها المنون

وقد فغر الحمام هناك فاه

وأتلع جيده الأجل المتاح (٢)

فانقلب يسرنا عسراً ، وأدال الله من الحلو مرراً ، وعظم
الخطب ، وعم الكرب ، ونحن في ذلك قعود ، كدود على
عود ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق
السنتنا ، وتوهمنا أنه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجود ،

(١) رخاء لا يشوبه سوء - من البلاهة

(٢) لابن خفاجة الاندلسي - فغر فتح والحمام الموت وأتلع

إلا السماء ، والماء ، وذلك السفين ، ومن في قبر جوفه دفين
البحر صعب المرام جدا لا جعلت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه (١)

وابثنا على هذه الحال من ظهر اليوم الرابع الى سحره
وبعد ذلك فترت الحال بعض الفتور ، ثم جاءت ريح رُخاء
زجت السفينة إلى بر جزيرة اقريطش « كريد ، أهنا تزجية
وأخذنا نسير في محاذاتها ، فما كان الا كلا ولا حتى وصلنا
إلى مدينة الخندق (٢) إحدى مدنها ومرافئها العظيمة ،
فأرسلنا بها ريثما نشترى منها ما يعوزنا من الخبز واللحم
والماء والفاكهة .

أقريطش

وهذه الجزيرة من جزر بحر المغرب الكبيرة ، فيها
مدن وقرى كثيرة ، يقابلها من بر أفريقيا لوبيا ، وجميع
سكانها الآن مسلمون ، وأميرها يسمى عبد العزيز بن

(١) المقرئ صاحب نفح الطيب (٢) كنديه Candia

شعيب من ولد أبي حفص البلوطي الاندلسي^(١) وذلك فيما علمت أن الحكم بن هشام أمير الاندلس كان قد أمعن صدر ولايته في اللذات ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحمد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فنقموا عليه وثاروا به وبايعوا بعض قرابته وكانوا باربض الغربي من قرطبة - محلة متصلة بقصره - فقاتلهم الحكم واستلحمهم ، وهدم ديارهم ومساجدهم فلاحقوا بفاس من أرض العدو^(٢) وبالاسكندرية ، وبعد أن أقاموا في الاسكندرية حيناً من الدهر تلاهى رجل منهم مع جزار من سوقتها فنادوا بالثار واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي - ويعرف بأبي الفيض من أهل قرية مطروح من عمل فخص البلوط المجاور لقرطبة - فقام برأسهم - وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر من جهة المأمون ، فزحف اليهم وحصرهم بالاسكندرية

(١) كل ما ذكر عن كريد تاريخي حقيقي (٢) مراکش

فأتمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى هذه الجزيرة - أقريطش -
فعمروها وأضاءوها بنور الاس-لام وشيدوا بها المع-اقل
والحصون والمدن العظيمة مثل الخندق التي اشترينا منها
خبزنا ولحمنا ، وبهرنا ما رأينا فيها من حضارة العرب وعز
الاسلام ، ولا يزال أميرها الى اليوم - وهو سنة خمس
وأربعين وثلاثمائة- من ولد أبي حفص البلوطي ، وهو الامير
عبد العزيز بن شعيب ، أدام الله عليه ملكه ، وأبعد عنه
كيد الاعداء .



ولما أفلعنا عن بر جزيرة أقريطش أسعدت الريح ،
وأصحت السماء ، ونام عنا البحر ، وأخذت السفينة تشق
اليم ، شق الجلم ^(١) وأخذنا في سمت جزيرة صقلية (Sicily)
وما زلنا حتى قطعنا سبعمئة ميل في مدى أربعة أيام بلياليها
ولما قاربنا صقلية وصرنا منها أدنى ذي ظلم ^(٢) أخذت أعيننا

(١) المقص (٢) أقرب شيء اليها تقول انه لاول ذي
ظلم لقيته اذا كان اول شيء مدد بصرك بليل أو نهار ومثله لقيته

أشباحا كالأعلام تسير على وجه الماء تنضم إلى بعضها تارة
وتنصاع كسرب القطا أخرى ، فتساءلنا : فقل لنا ان هذا
أسطول المعز لدين الله أبي تميم معد العبيدي يغزو ويروح
بين صقلية وبين قلاطورية (Calabria) من بر الارض الكبيرة
« أوروبا » فاعتبط بهذا المنظر تاجر مغربي أديب من أهل
المهدية ، نزل معنا من أقريطش بنية الوفود إلى صقلية ،
وأخذت منه هزة الطرب حين رأى أسطول بلده ، ورفع
عقيرته - وقد أنافت برأسه النعرة - نكرة العصبية -
قائلا : لله أبو القاسم محمد بن هاني ، الاندلسي شاعر سيدنا
المعز لكانه يرى ما نرى الآن حين يقول ، في هذا الاسطول
اما والجوارى المنشآت ^(١) التي سرت
لقد ظاهرتها ^(٢) عدة ^(٣) وعديد ^(٤)

أول وهلة وأول صوك وبوك
(١) السفن (٢) عاونتها (٣) عدد وآلات (٤) اناس
متعددة كثيرة - جنود -

قَبَاب^(١) كما ترخى القَبَاب على المَهَا^(٢)
ولكن من ضمت عليه أسود
عليها غمام مكفهر صبيره^(٣)
له بارقات جمّة ورعود
أنافت بها أعلامها^(٤) وسماها
بناء على غير العراء مشيد
من الراسيات الشم لولا انتقالها
فمنها قنات شمّخ وريود^(٥)
من الطير إلا أنهم جوارح
فليس لها إلا النفوس مصيد

(١) جمع قبة (٢) جمع مهاة وهى فى الأصل البلورة التى تبص
لشدة بياضها أو الدرة ثم أطلقت على بقرة الوحش على التشبيه
لبياضها ثم هم يشبهون المرأة بالمهاة فى البياض يعنون البلورة
أو الدرة وإذا شبهت بها فى العينين فانما يعنى بها البقرة يقول كما
ترخى القَبَاب على النساء (٣) الصبير السحاب الأبيض
(٤) راياتها (٥) القنات جمع قنة وهى أعلى الجبل والريود جمع
ريد بفتح الراء الحرف الثانى من الجبل

من القادحات النارُ تُضرم للصلي
فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت عارج
كما شب من نار الجحيم وقود
فأفواهمن الحاميات صواعق
وأنفاسهن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار^(١) كأنها
دماء تلقنها ملاحف سود
تعانق موج البحر حتى كأنه
سليط له فيه الذبال عتيد^(٢)
ترى الماء فيها وهو قان عبابه
كما باشرت رَدع الخلق جلود^(٣)

(١) الغمار جمع غمر الماء الكثير

(٢) السليط الزيت والذبال الفتائل وعتيد معد حاضر

(٣) الخلق الزعفران والردع اللطخ بالزعفران وقان أي

فليس لها إلا الرياح أعنة
وليس لها إلا الحباب كديد^(١)
وغير المذاكي أجرها^(٢) غيراتها
مسومة تحت الفوارس قود
رحيمة مد الباع وهي نتيجة
بغير شوى^(٣) عذراء هي ولود^(٤)
تكبرن عن نقم^(٥) يثار كأنها
موال^(٦) وجرد الصافنات عبيد

-
- (١) الكديد تراب حلبة الخيل (٢) يقول ليست من الخيل لان المذاكي الخيل والنجر الاصل (٣) يقول انها رحيمة مد الباع مع انها من غير قوائم فالشوى قوائم الفرس (٤) عذراء لانها لم تركب قبل وولود لانها تحمل ناساً فكأن الجنود فيها اولادها وهذا من قول مسلم بن الوليد كشفت اهاويل الدجى عن مهولة تجارية محمولة حامل بكر (٥) غبار (٦) المولى السيد

- لها من شقوق العبقرى ملابس^(١)
مفوفة^(٢) فيها النضار جسيم^(٣)
كما اشتملت فوق الارائك خرد^(٤)
أو التفعت فوق المنابر صيد^(٥)
لبوس تكف الموج وهو غطامط^(٦)
وتدراً بأس اليم وهو شديد
-

(١) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق والعبقر موضع
تزعّم العرب انه في أرض الجن قالوا وتوشى فيه البسط وغيرها
ثم نسبوا اليه كل شيء تمجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته
ويقال ثياب عبقرية من هذا

(٢) مفوفة فيها خبوط بيض

(٣) النضار الذهب والجسيم الدم

(٤) جمع خريدة وهى من النساء البكر التى لم تمس او الحبيبة

الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة

(٥) ملوك

(٦) اي عظيم - كثير الماء

فمنه دروع فوقها ، حواشن (١)

ومنها خفاتين (٢) لها وبرود

— وإنا لفي ذلك إذ رأينا قلورية من بر الأرض الكبيرة
عن يميننا ، وبر جزيرة صقلية عن يسارنا ، ثم دخلنا انجاز
الذي بينهما ، فرأينا بحراً صعباً ينصب انصباب العرم ، ويفلى
غليان المرجل ، لشدة انحصاره و انضغاطه ، فاستمر مركبنا
في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً ، ولما شارفنا
مدينة ريو (Reggio) وقد كان الليل ، ظلماً ربوض النواحي
ضربت في وجوهنا ريح انكصتنا على الاعقاب ، وحالت
بين الابصار والارتقاب ، وتقاومت علينا عوارض ديم
صرنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم ، وعباب البحر
تقوى صدماته ، وتظفر الابواب رجفاته ، فقطعنا هذه الليلة
البهاء في مقاساة احوال تجعل الولدان شيباً (٣) ثم تداركنا
صنع الله مع السحر ، ففترت الريح ، ولان متن البحر وجاءت
ريح رخاء زجت المركب نزجية حسنة الى مدينة ريو

(١) الجواش القمصان (٢) نوع من الثياب (٣) ابن جبير

وكان ذلك في فجر اليوم التاسع ليوم انفصالنا عن
الاسكندرية . وما أرسى المركب على هذه المدينة حتى
أقلع عنها كيلا يحسه اسطول العبيدين ويثار منه . وذلك
فيما علمت أن المركب الأندلسي كان قد تحرش وهو ذاهب
إلى بلاد المشرق بمركب المعز فيه كتب ورسائل - فقطع
عليه المركب الأندلسي وأخذه بما فيه ^(١) فتملكنا الذعر
لذلك الخبر، ونزت قلوبنا خوفا على أنفسنا - ومن ثم اعترمت
أن أنزل من هذا المركب على أقرب بلد يرسى عليه، وكذلك
نزلت منه عند إرسائه على هذه المدينة وحمدت الله الذي
لا يحمد على المحبوب والمكروه سواه .

يبدأ أنى ما انفصلت عن المركب حتى انفصل عني
قلبي وسار مع من فيه وأصبحت على حد قول القائل :

(١) ابن خلدون

هو اى مع الركب اليمانين مصعد

جنيب و جثماني بمكة موثق

ذاك انفصالى عن فضل المدنية التي هي مراد السمع
ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب
وأنس الوحيد وزاد الراكب ، ولا بدع فهناك الجمال الرائع
والظرف البارع ، والشباب البض ، والأدب الغض ، ورقة
الحاشية. وخفة الناحية ، وعدوبة المعاشرة ، وحلاوة المحاضرة

وحديثها السحر الحلال لو انه

لم يحن قتل المسلم المتحرز

إن طال لم يمل وإن هي أوجزت

ود المحدث أنها لم توزر

شرك العقول ونزهة ما مثلها

للمطمئن وعقلة المستوفز

فكأن لفظ حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

حوراء ان نظرت اليك سقتك بالعينين خمرًا
تنسى الغوي معاده وتكون للحكام ذكرا

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذبة
حبا لذكرك فليمنى اللوم

وما أنس من الأشياء لا أنس صوتها العذب الذي
كأنه مجاج النحل، وغناها الحبيب إلى النفوس حتى كأنها
خلقت من كل قلب، فهي تغني لكل ما أحب، واقد كان
يخيل إلينا وهي تغنينا في المركب أنا في الفردوس يطربنا
نبي الله داود.

إذا هي غنت أبهت الناس حسنُها
وأطرق اجلالا لها كل حاذق

غنت فلم تبق في جراحة الا تمت بأنها أذن

تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الاوصال وهي تجيد
مد في شأو صوتها نفس كا	ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه	وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا وبحي	مستلذ بسيطه والنشيد
في هوى مثلها يخف حلیم	راجح حامه ويفوى رشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا	مالها فيها جميعاً نديد

وأن لا أين مزهرها الذي كأن صوته صرير باب الجنة
والذي كانت اذا تناولته لتضرب على أوتاره فكانما تنتظم
قلوبنا لتضرب على أوتارها . وهكذا هكذا فليكن الغناء
ومجاءه ، وهل خلقت الاغاني . لعمر آلهك الا للغواني ؛
وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله ، وبين أن
تسمعه من فم تشتهي أن تشيح بوجهك عنه ؛ وأيهما أملح
وأجمل - أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ منخلع الاسنان

متغضن الوجه - أو تغنيك غانية كطاقة نرجس أو آس ،
وكانها حورية أبقّت من رضوان ، خازن الجنان . فآه من
جمالها وآه من حديثها وآه من غنائها وآه من مزهرها ،
والكن نزلت ربو وفارقتني فضيل ، والله الامر من بعد
ومن قبل

يا وحشتا للغريب في البلد الـ ازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعوا
يقول في نأيه وغرته - عدل من الله كل صنعا

وهذه ربو هي مدينة عظيمة من مدائن جزيرة قلورية
من بر الارض الكبيرة ، واقعة على مجاز مسيني ، بينها
وبين مسيني نحو من عشرة أميال ، وبها مسجد كبير بناه
في وسطها ابو الغنائم الحسن بن علي بن أبي الحسين السكاكي
والى صقلية كان من قبل المنصور العبيدي بعد أن اكتسح
بلاد قلورية جميعاً وتغلغل في أحشائها وشيد بها المعقل
والحصون وأرغم أنوف أهلها من الروم ، وذلك فيما بلغني أن

الانبرور^(١) صاحب القسطنطينية كان قد أرسل سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة بطريقا في البحر في جيش عرمرم الى جزيرة صقلية فأرسل الحسن الى المنصور العبيدي يعرفه الحال فأرسل اليه اسطولاً فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل سوى البحرية ، وجمع الحسن اليهم جمعاً كثيراً وسار من بلرم قصبة صقلية في البر والبحر فوصل الى مسيني وعبرت العساكر الاسلامية الى ريو هذه وبث الحسن سراياه في أرض فلورية ونزل هو على بلديسحي جراحة وحاصرها أشد حصار حتى أشرف أهلوها على الهلاك من شدة العطش ، وأنه لفي ذلك اذ وصله الخبر أن الروم قد زحفوا اليه فصالح أهل جراحة على مال أخذه منهم وسار الى لقاء الروم ففروا من غير حرب الى مدينة تدعى بارة ونزل الحسن على قلعة تعرف بقلعة قسانة وبث سراياه الى فلورية وأقام عليها شهراً فسألوه الصلح فصالحهم على مال أخذه منهم ودخل الشتاء فرجع الجيش الى مسيني

وشى الاسطول بها ، فأرسل اليه المنصور يأمره بالرجوع الى قلورية فسار الحسن وعبر المجاز الى جراجة فالتقى المسلمون والروم يوم عرفة سنة اربعين وثلاثمائة فاقتلوا أشد قتال رآه الناس فانهمزمت الروم وركب المسلمون اكتافهم الى الليل وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم ثم دخلت سنة احدى واربعين فقصد الحسن جراجة فحصرها فأرسل اليه الانبرور يطلب منه الهدنة فهادنه وعاد الحسن الى ربو وبني بها مسجد كبيراً في وسطها وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته واقامة الصلاة فيه والأذان وان لا يدخله نصراني ومن دخله من الاسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقماً على دينه وان أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلة وصغاراً (١)

أما قلورية فهي جزيرة كبيرة داخلية في البحر مستطيلة

شرق جزيرة صقلية وأهلها أفرنج ولها بلاد كثيرة وارض واسعة ينسب اليها فيما أحسب ابو العباس القلّـوري حدث عنه ابو داود السجستاني في سننه^(١) وقد غزى المسلمون ازمان بنى الاغلب هذه الجزيرة وارض انكبردة « لومبارديه » وامنوا فيها واستولوا على مدينة بارة^(٢) الواقعة على جون البنادقين^(٣) أيام قارله^(٤) انبرور الفرنج ، وكذلك استولوا على مدينة طارنت من ارض أنكـبـر دة ومدينة ملف وقلعة قسانه وبلدانا اخرى ، وقرعوا أبواب رومة العظيمة ، وغنموا منها غنائم لا يستقام لها قيمة^(٥) وضربوا الجزيرة على البابا عظيم النصرانية — وذلك عدا أنهم فتحوا مدينة جنوة الواقعة على خليج الجنويين واكثر جزائر هذا البحر الرومي —

(١) معجم البلدان (٢) جاء في دائرة معارف البستاني ما يأتي : هي مدينة في ايطاليا على شبه جزيرة صغيرة في بحر ادرياتيك : — الى أن قال . وفي عهد شارلمان كانت بارة اكبر حصن للعرب على هذا البحر (٣) بحر الادرياتيك (٤) هو شارلمان و انبرور اي امبراطور (٥) لا تقدر قيمتها نفاسة

وجملة القول أن المسلمون أثنوا في بلاد الارض الكبيرة
وألحوا في قهرها ، وغلبوا أممها على امرها ، وضربت
اساطيلهم بجزائر هذا البحر ضراء الضياغم بفرائسها ، وأدبل
لهم بها من املاكها ^(١) واناسها ، وذلك كله بنا قوى عزائمهم
من الحق واليقين ، والف بين قلوبهم من وشائج هذا الدين
وبما ألجأتهم اليه الحال . وامتلاكهم لسيف ^(٢) هذا البحر الجم
الاهوال . مما احكمهم وأشغفهم بحبه . وجعل لهم دربة
بركوبه وحربه . وأغراهم بانشاء الاساطيل فيه ينقضون بها
على جزائره التي يخطئها العد والاحصاء . وعلى عدوته
الشمالية ^(٣) وهي أمتع من العقاب في أجواز الفضاء . وعلى
أهلها من امم فرنجة وهى أعز وأبعد منالا . وان كان
للمسلمين

شرف ينطح السماك بروقيه وعز يقلقل الاجبالا

*
* *

(١) ملوكها (٢) السيف ساحل البحر والجمع اسياف

(٣) سواحل اوروبا الجنوبية

وعلم البحر ذو الغوارب الا انه صار عند بحرك آلا

وقد كان السامون في الصدر الاول يتحاشون ركوب
البحر حتى كان من عمر بن الخطاب لما كتب الى عمرو بن
العاص وهو على مصر يستوصفه البحر فكتب اليه عمرو
فيما كتب : ان البحر خالق عظيم يركبه خالق ضعيف : دود
على عود : — أن اوعز بمنع السامين من ركوبه فتخرجوا
منه وعبروا على ذلك حينئذ من الدهر . حتى اذا كان لعهد
معاوية اذن في ركوب اثباجه . والجهاد على مقون امواجه
وذلك لان العرب ابداوتهم لم يكن لهم مران عليه وحقق
بركوبه بينما الروم والفرنجية لما رستهم احواله ومرباهم في
التقلب على اعواده للحرب والاتجار مرنوا عليه واحكموا
الدربة بثقافته والحرب في أساطيله حتى كان من ذلك أن
أغار الروم من العدو الشمالية على أفريقية من العدو
الجنوبية والقوط على المغرب منها — اجازوا في الاساطيل
وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم

امرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنه وطنجه ، وكان صاحب قرطاجنه من قبلهم بحارب صاحب رومه ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد — فكان ذلك ديدن أهل هذا البحر الساكنين حفافيه في القديم والحديث فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم الاعاجم خولا لهم وتحت أيديهم وممت اليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية اما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، شرهوا الى الجهاد فيه فأنشأوا السفن والاساطيل وشحنوها بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من هذه الامم الحمراء ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس . فاوزع عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان عامل افريقية بأخذ دار الصناعة بقونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الاغلب كما سيمر بك ، ثم تسلسل الامر حتى

بلغ شأن الاساطيل عند العبيدين أصحاب افريقية وعند
بنى امية بالاندلس مبلغاً غلبوا معه على هذا البحر من جميع
جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه وصار لا قبيل
لامم النصرانية باساطيلهم به وماكوا سائر الجزائر
المنقطعة عن السواحل منه مثل اقريطش وصقلية وقبرص
ومالطة وقوصرة وسردانية وميورقة ومنورقة ويابسة (١)
كما سيمر بك ان شاء الله .

ولقد كان من أجل عناية العبيدين وبنى امية بشأن
الاساطيل وتفوقهم في ذلك على سائر الممالك الاسلامية
للسبب الذي قدمناه وهو وجودهم على ضفاف هذا البحر -
أن انبعثت قرائح الشعراء في الاندلس وافريقية بالقول في
وصف الاساطيل، واختص أدباء هذين القطرين بهذا الباب
من الوصف حتى لا تكاد تجد لشعراء المشرق بدءاً فيه - ومن
أحسن ما سمعناه لشعراء المغرب في الأسطول دالية أبي القاسم

محمد بن هانيء الشاعر الانداسى المنقطع الآن للمعز العبيدي
وقد تقدمت فى صدر هذه الرسالة . وبائية علي بن محمد الايادى
التونسي شاعر القائم العبيدى وهى دون الدالية، وفيها يقول

شرجوا جوانبه مجاذف أتعبت
شأو الرياح لها ولما تعب
تنصاع من كشب كما نفر القطا
طوراً وتجتمع اجتماع الربوب
والبحر يجمع بينها فيكأنه
ليل يقرب عقرباً من عقرب
وعلى كواكبها أسود خلافة
تختال فى عدد السلاح المذهب
فكأنما البحر استعار بزيمهم
ثوب الجمال من الربيع المعجب
ومنها فى وصف الشراع
ولها جناح يستعار يطيرها
طوع الرياح كراحة المتطرب

يعلو بها حذب العباب مطارة
في كل لج زاخر مغلوب
يسمو بأجرد في الهواء متوج
عريان منسوج الذؤابة شوذب^(١)
يتنزل الملاح منه ذؤابة
لو رام يركبها القطا لم يركب
فكأنما رام استراقة مقعد
للسمع الا أنه لم يشهب
وكأنما جف ابن داود همهم
ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا
منها بالأسن مارج متلهب
من كل مسجود الحريق اذا انبرى
من سجنه انصابت انصالات الكوكب

عربان يقدفه الدخان كأنه
صبح يكر على الظلام الغيب
الى أن قال

ولواحق مثل الأهله جنح
لحق المطالب فائتات المهرب
يذهبن فيما بينهن طافة
ويجئن فعل الطائر المتقلب
كنضائض الحيات رحن لواعباً
حتى يقمن برك ماء الميزب

«وبعد» فإن لشعراء المغرب من بارع القصيد في هذا
الباب ما لا يحصى كثرة، وما ينم عن عظمة الأساطيل عند
الدول الإسلامية وبلوغها لديهم الشأو الذي لا يلحق حتى
وصل المسلمون إلى ما وصلوا اليه من الصولة واتساع الملك
وضخامة السلطان.

ومن هنا تعرف مكان الأساطيل من الدول ولا سيما

دول البحار مثل الدول الإسلامية لعهدنا ، وإن الأسطول
هو سياج الدولة وعمادها ، وبه عزها وعليه بعد الاعتمادها ،
بل هو درعها المسردة التي تتقى بها سهام الأعداء وتحول
وسلاحها الذي تطول به في البحر وتصول ، وجناحها الذي
تطير به في سماء المجد وتجول ، وإن دولة لم تكن العناية كلها
بالأساطيل ، وترسلها على متن هذا البحر طيراً أبابيل ،
هي لعمرى دولة مقصوفة الجناح ، وكالاً عزل يقتحم
الهيجاء بغير سلاح .

وما خير كف أمسك الغُل اختها

وما خير سيف لم يؤيد بقائم

ولما نزلت على ربو أخذت ستمى إلى مسجدتها الجامع
لأصلي فيه صلاة الصبح وأثابج صدري ببرد التقى وشعائر
الإسلام ، وأجلو بعضاً من وعشاء السفر الزوام ، وما زلت
حتى أخذت عيني بناء شاهقا تعتم مأذنته بالعماء . كأنما تنث
حديثاً إلى ملائكة الله في السماء ، أو كأنها تعلن برفعها رفعة

الاسلام ، وعزة أهله على عبَد الطاغوت والاصنام . وكذلك رأيت كل من مر بهذا المسجد من الروم أغضى من ههنا بته ذلة وصفاراً . وإجلالا لدين الله وإكباراً . مما ألقاه في قلوبهم من الرعب واختشاء المسلمين أبو الغنائم الحسن بن علي رحمه الله .

ولما توسطت باحة المسجد رأيت صفوف المصلين من الرجال وأمامهم في المحراب . كسطور أمامها عنوان الكتاب . وخلف الرجال حازر من خشب يليه صفوف المصليات من النسوان . كما تكون هوامش الصفحة يفصلها من سائرها أحمر من المداد قان . فانضمت إلى صفوف المصلين ، وصليت معهم صلاة الصبح . ولما أن سلم الامام وكان قائداً من قواد العرب في هذه البلاد — وكذلك كان أئمة المسلمين في الحروب والسياسات . أئمة لهم في التقى والصلوات ، قام واتكأ على سيفه وقال (١) :

(١) هذه الخطبة من وضعنا ، وانما نقصد تصوير ذلك العصر من جميع جوانبه

أيها العرب أنتم الآن بين ظهرائي عدو يلندد^(١)
يتجرع منكم الغُصص، ويتحين بكم الفرص، وبودلويبدانكم
الله ضعفاً من قوة، وضنا بنفوسكم من فتوة^(٢)، وهزيمة
من ظفر، واستحالة لصفوكم إلى كدر، فيثب بكم وثبة
الغضنفر نال منه الجوع والسَّعار^(٣)، ويسئل بكم كما يسئل
هذا البركان فيرمى بحممه والشرار، فاذا فترت منكم الهمم،
ووهت العزائم، وأغمدتم السيوف في الأُجفان، وقعدتم عن
نصر الله في كل آونة وكل مكان، وسكنتم إلى الترف والنعيم
وجرتم معاذ الله عن النهج القويم، ودب اليكم ما قد دب
إلى هذه الأمم الجراء، من الحسد والبغضاء، فانكم صائرون
لا محالة إلى ما قد صاروا إليه، وإذ ذاك يُصيركم الله بعد
نصركم، قَلاً^(٤) ويديل من عزكم ذُلاً، ومن كُثركم قَلاً،
وتيثضون بعدُ على هذا العالم كلاً^(٥).

(١) ألد شديد الخصومة (٢) بذل وكرم والمراد كما هو
ظاهر بذل النفس (٣) شدة العطش (٤) منهزمين (٥) طالة وثقلا

وبعد أن فرغ من كلامه خرج وخرج معه رجاله
وعلوا متون الجياد وذهبوا إلى حيث يعلنون كلمة الدين ،
ويذيعون التقى والحق واليقين . وينسفون دعائم الشرك
والالحاد . ويفككون اغلال الظلم من رقاب العباد .

مستمسكين بحق قائمين به اذا تلون أهل الجور ألوانا
ولما أن قضيت صلاتي خرجت من المسجد وقصدت
إلى مرسى السفين فوجدت ثمت مركبا يريد أن يعبر إلى
جزيرة صقلية فنزلته ثم أقلع وعبر بنا إلى مدينة مسيني
إحدى مدائن هذه الجزيرة ، وأرسي فيها على مرسى عجيب
يأخذ بالأبواب ، وذلك أن أكبر ما يكون من السفن يرسي
من الشاطيء بحيث يتناول ما فيها من البر بالأيدي (١)

وقبل أن نسترسل في القول على مدينة مسيني وسائر
البلدان التي مررت بها في هذه الجزيرة العجيبة نذكر لك شيئا
من تقويمها وتاريخها حتى تكون على بينة من أمرها ان شاء الله .

صقلية

هي جزيرة في البحر كبيرة على شكل مثلث متساوي الساقين ، زاويته الحادة من غربي الجزيرة ، بينها وبين ريو وبلاد قلورية من بر الأرض الكبيرة مجاز مسيني حيث يتراوح البحر بين ستة أميال وعشرة أميال ، وبين ذنبتها الغربي وبين تونس نيف وستون ميلا ، وزاويتها الجنوبية تقابل بر طرابلس من أفريقية ، وبالقرب من زاويتها الشمالية جزيرة صغيرة فيها بركان النار الذي لا يعلم في العالم أشنع منظرا منه : وهذا بركان اسم لجبلين أحدهما هذا والثاني في صقلية نفسها في أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى ، ومن ثم كانت كثيرة الزلازل بحيث يكثر تهديم أبنيتها منها ، وسيمر بك قريبا قول ضاف في هذا المعنى .

وقد كانت هذه الجزيرة قبل الفتح خاملة قليلة العمارة

وكانت من عمالات الروم وأمرها راجع إلى الانبرور صاحب
قسطنطينية. وكان عليها وال من قبل هذا الانبرور يسمى
قسطنطين. وكانت أفريقية ^(١)، تحت ولاية زيادة الله بن
الأغلب. كان واليا عليها من قبل المأمون بن هرون الرشيد
فلما كانت سنة ثنى عشرة ومائتين استعمل الانبرور على
الاسطول قائدا روميا يسمى فيمي، وكان حازما شجاعا،
فغزا سواحل أفريقية وعيث فيها وبقي هناك مدة وبعد
ذلك كتب الانبرور إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي
وتعذيبه. فتمى الخبر إلى فيمي فانتقض وتعصب له أصحابه
وسار إلى مدينة سرقوسة إحدى مدائن صقلية فملكها فسار
إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين إلى
مدينة قطانية فسير إليه فيمي جيشا فقبضوا عليه وقتلوه
واستولى فيمي على صقلية وخطب بالملك وولى على ناحية
من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة فاتفق بلاطة هو وابن عم له
يسمى ميخائيل كان واليا على بلرم وجمعا عسكرا كثيرا

(١) تونس والجزائر وطرابلس الغرب

وقاتلا فيمي فانهزم فيمي وركب في أسطوله الى أفريقية
مستنجداً بزيادة الله بن الأغلب فسير معه أسطولاً عظيماً
في تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل واستعمل عليهم أسد
ابن الفرات — قاضي القيروان ومن أصحابه مالك رضى الله
عنه وهو مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك —
وأقلعو من سوسة^(١) فوسلوا الى مدينة مأزر من صقلية
وساروا الى بلاطة الذى قاتل فيمي فهزموه والروم الذين
معه وغنموا أموالهم وهرب بلاطة الى قلورية فقتل واستولى
المسلمون على عدة حصون من الجزيرة وجرت وقائع كثيرة
بين الروم والمسلمين امتدت سنين طوالاً وانتهت باستيلاء
المسلمين على جميع جزيرة صقلية — وبقيت صقلية بيد بنى
الأغلب يتناوبها عمالهم الى أن أدال الله منهم للعبيدين
ودانت لعبيد الله المهدي أفريقية وما إليها فأخذوا يبعثون

(١) هي الآن من أعمال ولاية تونس واقعة على البحر
الابيض المتوسط على مسافة ١١٠ كيلومترا من تونس الى الجنوب
الشرقي

عمالهم عليها الى أن كانت فتنة أبي يزيد وشغل أبي القاسم القائم والمنصور العبيدي من بعده بأمره — فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية لأبي الغنائم الحسن ابن أبي الحسين بن علي الكاكي — وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعه أبي يزيد ^(١) غناء عظيم — فهدد الامور للعبيديين

(١) ابو يزيد الخارجي هو رجل من زناته واسم والده كيداد من مدينة توزر من بلاد قسطنطينية بافريقيه فولد له ابو يزيد بتوزر من جارية سوداء ونشأ ابو يزيد في توزر وتعلم القرآن وسار الى تاهرت وصار على مذهب النكارية وهو تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على السلطان ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ست عشر وثلثمائة ودعا أهل تلك البلاد فأطاعوه وكثر جمعه في أيام القائم بن المهدي فحصر قسطنطينية ثم فتح تبسه ثم سببية وصلب حاملها ثم فتح الاريس فأخرج القائم جيوشاً لحفظ رقاده والقيروان فهزمهم ابو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان ورقاده ثم سار ابو يزيد الى القائم فجهز اليه القائم جيشاً فخري بينهم قتال كثير وأخيراً انهزمت جيوش القائم فسار ابو يزيد وحصر القائم بالمهدية

وضايقها وغلابها السمر وعدم القوت ولم يزل حتى رحل عنها
ورجع الى القيروان وفي أثناء ذلك توفي القائم وملك ابنه
المنصور فجهز المنصور العساكر وسار بنفسه الى القيروان
واستعادها من أبي يزيد وانهزمت عساكر الخارجيين وسار المنصور
في أثره فأدركه على مدينة باغاية فهرب الخارجيون من موضع الى
آخر حتى وصل طبنة وهرب حتى وصل الى جبل للبربر يسمى
برزال والمنصور في أثره واشتد على عسكر المنصور الحال فرجع
المنصور الى بلاد صنهاجه وبلغ الى موضع يسمى قرية عمره
واتصل به هناك الامير زيري الصنهاجي وهو جد ملوك بني
باديس فاكرمه المنصور غاية الاكرام ثم رحل الى المسيلة وكان
قد اجتمع الى أبي يزيد جمع من البربر وسبق المنصور الى المسيلة
فلما قدم المنصور اليها هرب عنها ابو يزيد الى جهة بلاد السودان
فاقتنى المنصور أثره حتى قابله فاقتتلوا فانهزم ابو يزيد واخذت
أثقاله فالتجأ الى قلعة كتامة وهي منيعة فحاصرها المنصور وداوم
الزحف عليها الى أن ملكها عنوة فهرب ابو يزيد من القلعة من
مكان وعرف سقط منه فأخذوه وحملوه الى المنصور فسجد المنصور
شكراً لله وكثر تكبير الناس وتهليلهم وبقى ابو يزيد في الاسر
مجرّواً في المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فسلخوا جلده
وحشوه تبنا وكتب المنصور الى سائر البلاد بالفتح وبقتل ابني

وغزا بلاد قلوريه وأقام والياً على صقلية وماليها الى أن استأثر الله بالمنصور وقام بالأمر من بعده ولده المعز لدين الله ابو تميم معد فسار الحسن اليه بافريقية سنة احدى واربعين واستخلف على ماوراء ابنه ابا الحسين احمد، ولا يزال هذا الامير أيده الله والياً على صقلية وماليها الى اليوم وهو سنة خمس واربعين وثلاثمائة ومقامه ببلرم حضرة هذه الجزيرة .

وهذه الجزيرة جدٌ خصيبة ^(١) وكلاًها لا ينقطع في صيف ولا شتاء ، وهي كثيرة الأمواه والعيون والفواكه والارزاق ^(٢) وجبالها كلها مثمرة بالتفاح والشاه بلوط ^(٣) والبندق والاجاص . ومنها يجلب الجوز والقسطل الى بلاد افريقية ويجلب منها كثير من القطن — وفيها

يزيد وعاد الى المهديّة، وكان ابو يزيد قصيراً اعرج قبيح الصورة،
يلبس جبة صوف قصيرة . اهـ ملخصاً من ابن خلدون

(١) خصيبة جدا (٢) كتاب الجغرافية لابن عبد الله محمد

بن أبي بكر الزهرى (٣) هو المعروف في مصر بأبي فروة

معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق (١)
وهي مستبحرة العمران كثيرة المدن والقرى والضياع، فقد
أخبرني ثبت ثقة أن بهذه الجزيرة مائة وثلاثين بلداً (٢)
بين مدينة وقلعة عدا ما فيها من الضياع والمنازل والبقاع -
وكلها مسكونة بالمسلمين، ملأى بالمساجد والفنادق
والحمامات . وفيها من العلماء والفلاسفة والادباء، ما لا يكاد
يدركه العد والاحصاء (٣) ومن مشهور مدائنها مدينة

(١) نزهة المشتاق ورحلة ابن جبير ومعجم البلدان

(٢) معجم البلدان

(٣) انجبت جزيرة صقلية كثيراً من العلماء والادباء والشعراء
والفلاسفة والاطباء ممن لهم شأن في الادب العربي واكثرهم كان
بعد زمن الرحلة . ولا بأس بإيراد بعض مشهورهم هنا حتى تكون
هذه الرسالة وحواشيها مغنية في هذا الباب . فمن علماء هذه
الجزيرة ابو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن
القطاع - قال ابن خلكان: كان أحد أئمة الادب خصوصاً اللغة وله
تصانيف نافعة منها كتاب الافعال أحسن فيه كل الاحسان وهو
أجود من الافعال لابن القوطية وان كان ذلك قد سبقه إليه ، وله

كتاب ابنية الاسماء جمع فيه فاوعى وفيه دلالة على كثرة اطلاعه
وله عروض حسن جيد ، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من
شعر شعراء الجزيرة (أى شعراء جزيرة صقلية) وكتاب للملح
الملح جمع فيه خلقا من شعراء الاندلس - وكانت ولادته في العاشر
من صفر سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة بصقلية ، وقرأ الادب على
فضلائها كابن عبد البر اللغوي وأمثاله وأجاد في النحوغاية
الاجادة ورحل عن صقلية لما اشرف على تملكها الافرنج ووصل
الى مصر في حدود سنة خمسماية وبالع أهله مصر في اكرامه -
ومن شعره في ألثغ

وشادن في لسانه عقد حلت عقودي واوهنت جلدي
طابوه جهلا بها فقلت لهم اما سمعتم بالنفث في العقد
وله من قصيدة

فلا تنفدن العمر في طلب الصبا ولا تشقين يوما بسعدى ولا نعم
ولا تندبن اطلال مية باللوى ولا تسفحن ماء الشؤن على رسم
فان قصاري المرء ادراك حاجة وتبقى مذمات الاحاديث والاثم
الى آخر ما قال . وتوفي بمصر في صفر سنة خمس عشر وخمماية
ومن علماء صقلية ابو عبد الله محمد بن ابى محمد بن ظفر الصقلي
المنعوت بحجة الدين ، قال ابن خلكان : صاحب التصانيف الممتعة

ككتاب سلوان المطاع، في عدوان الاتباع، صنفه لبعض القواد
بصقلية سنة اربع وخمسين وخمسمائة، وخير البشر بخير البشر وكتاب
الينبوع في تفسير القرآن الكريم وكتاب نجباء الانباء وشرح
المقامات للحريزي وهما شرحان كبير وصغير

ويروى له شعر فمن ذلك قوله

جملتك في قلبي فهل أنت عالم بأنك محمول وانت مقيم
الا أن شخصاً في فؤادي محله واشتاقه شخص على كريم
الى أن قال - وكانت نشأته بمكة وتنقل في البلاد ومولده
بصقلية وسكن آخر الوقت بمدينة حماة وتوفي بها سنة خمس
وستين وخمسمائة - ومن علمائها ابو عبد الله المازري وسيأتي القول
عليه - ومنهم ابو بكر محمد بن سابق الصقلي قال ابن بشكوال
في الصلة : كان من أهل الكلام مائلاً اليه قدم الاندلس وأخذ
عنه أهل غرناطة وتوفي بمصر سنة ثلاث وتسعين واربعمائة -
والقاضي الرشيد احمد بن قاسم الصقلي قال العماد : طراً على مصر
وكان قاضي قضائها في أيام الافضل : قال : دخل يوماً على الافضل
وبين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فقال

ألين لداود الحديد بقدرة يقدره في السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على أنه صعب المرام شديد

وابو الفضل العباس بن عمرو الصقلي قال في جذوة المقتبس
كان بالاندلس وروي الحديث هناك - والفقهاء ابو موسى
عيسى بن عبد المنعم الصقلي قال العماد : كان كبير الشأن ، ذا الحجة
والبرهان ، الي أن قال : ومن بديع قوله في الغزل . وهو أحلي
من نجاح الامل

يا بني الاصفر انتم بدمى منكم القاتل لي والمستبيح
أملح هجر من يهواكم وحلال ذاك في دين المسيح
يا عليل الطرف من غير ضنى واذا لاحظ قلباً فصحيح
كل شيء بعد ما أبصرتكم من صنوف الحسن في عيني قبيح
وولده الفقيه أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم الصقلي
قال العماد : كاتب شاعر ، بارع ماهر ، مهندس منجم ، لغارب
الفصاحة متسّم ، وفي ملتقى اولى العلم كمي معلم ، الى آخر ما هنالك
وقال صاحب طبقات الحكماء . هو من أهل العلم بعلم الهندسة
والنجوم ماهر فيهما قيم بهما مذكور بين الحكماء هناك
ومن شعره

كتمت الذي بي فانتفعت بكتمانى
وأعلنت حالى فاتهمت باعلانى

وما خلت أن الأمر يفضي الى الذي
رايت ولايكن كل شيء يرى فاني

ومنه

أنا والله طاشق لك حتى ليس لي عنك يا مني النفس صبر
وحياتي ان تم لي منك وصل ومماتي ان دام لي منك هجر
« وهذا ابو عبد الله هو غير أبي عبد الله الصقلي الفيلسوف
المذكور في الرحلة » ومنهم ابو الحسن علي بن حمزة الصقلي قال في
جذوة المقتبس : دخل الاندلس قبل الاربعين واربعمئة وكان
يتكلم في فنون ويشارك في علوم الى آخر ما قال — والفقيه
ابو محمد بن صمنة الصقلي ذكره العماذ في الخريدة . ومن أطباء صقليه
أبو سعيد بن ابراهيم الصقلي صاحب كتاب المنجح في التداوي
من صنوف الامراض والشكاوى ، واحمد بن عبد السلام الشريف
الصقلي صاحب كتاب الاطباء في الامراض من الفرق الى القدم
ذكرها صاحب كشف الظنون — ومن فلاسفتها ابو عبد الله
الصقلي الآتي ذكره في الرحلة وابو عبد الله المتقدم ذكره
وابو حفص عمر بن الحسن بن القوني الكاتب ذكره العماذ وقال انه
شاعر كاتب منجم مهندس — ومن ادبائها الشاعر الكبير ابن
حمديس قال ابن بسام : هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعاني
البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف في

التشبيه المصيب ، ويغوص في بحر الكلم على در المعني الغريب ،
فن معانيه البديعة قوله في صفة نهر

ومطرود الاجزاء يصقل متنه صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا اوجاءه بخبره
كأن جيانا ريع تحت حبابه فاقبل يلقي نفسه في غديره
كأن الدجى خط المجرة بيننا وقد كللت حافته ببدوره
شربنا على حافته دون سكره نقبل شكراً منه عيني مديره

وله من قصيدة

بت منها مستعيداً قبلا كن لي منها على الدهر اقتراح
وأروى غلل الشوق بما لم يكن في قدرة الماء القراح
وأول هذه القصيدة

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح
باكر الى اللذات واركب لها سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الاقاح

وكان قد دخل الاندلس سنة احدى وسبعين واربعائة ومدح
المعتمد بن عباد فأحسن اليه وأجزل عطاياه ، ولما قبض المعتمد
وحبس بأغلمات ممع ابن حمديس أبياتا عملها المعتمد في الاعتقال
فقال

أُتِيسَ من يوم يناقض أمسه
وشهب الدراري في البروج تدور
ولما رحلتم بالندي في أكفكم
وقلقل رضوي منكم وثبير
رفعت لسانى بالقيامة قد دنت
فهذي الجبال الراسيات تسير
وله من أبيات المعاني الغربية
زادت على كحل العيون تكحلا ويسم نصل السهم وهو قتول
وله يتشوق الى صقلية مسقط رأسه
ذكرت صقلية والهوى يجدد للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فاني احدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها
ثم يقول بعد ذلك من أبيات
ولو أن أرضى حرة لايتها
بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لي بفكائها
من الامر في أيدي العلوج الكواذب (١)

(١) فارق ابن حمديس صقلية بعد أن تملك معظمها روجر النور مندى وذلك حوال سنة ٤٧١ هـ وكان ابن حمديس اذ ذاك حدثا في منتصف العقد الثالث

ويقول من أبيات يصف جارية له غرقت

واوحشتا من فراق مؤنسة	يميتني ذكرها ويحييها
اذكرها والدموع تسبقني	كأنني للأسي أجاريها
جوهرة كان خاطري صدفا	لها أقيها به وأحميها
يا بحر ارحصت غير مكترث	من كنت للنجيع اغليها
أبناها في حشاك مفرقة	وبت في ساحليك أبكيها
وتفحة الطيب في ذوائبها	وصبغة الكحل في ما آقيها
طانقها الموت ثم فارقها	عن ضمة فاض روحها فيها
ويلي من الماء والتراب ومن	أحكام ندين حكما فيها
أماها ذا وذاك غيرها	كيف من العنصرين أفديها
وله يصف عوداً	

في حجره اجوف له عنق	نيطت بظهر تخاله حذبه
يعد كفا اليه ضاربة	اعناق احزاننا اذا ضربه
قلت ألافانظروا الى عجب	جاء بسحر فانطق الخشبه
وله	

واشراك الردي في الغيب تخفي	كما يخفين في ترب الحضيض
عجبت لجمعه فيهن صيداً	حوي بين القشام والبعوض

وله يصف خسوف القمر

والبدر قد ذهب الخسوف بنوره

في ليلة خسرت أواخر مدها

فكانه مرآة قين احميت

فمشي احرار النار في مسودها

ومن أبيات له يصف البق والبراغيث والبعوض

نومي على ظهر الفراش منعص والليل فيه زيادة لا تنقص

من حاديات كالدئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص

جعلت دمي خمرأ تداوم شربها مسترخصات منه ما لا يرخص

فترى البعوض مغنياً برابه والبق تشرب والبراغيث ترقص

واليك أبيات له من السهل الممتنع يصح أن يتغنى بها

هات كاس الراح أوخذها اليك ينزل اللهو بها بين يديك

ريقة العيش بها فاخلمع على شفيتها كل حين شفتيك

وأطع فيها نديميك بما حكما واعص عليها حاذليك

واذا سقيت منها شفقا طلعت حمرة في وجنتيك

وتناول نشوة من روضة طلعت كالشمس بالنجم عليك

تتغنى بنسيب قلته فهوها راجع منك اليك

فاوضت في الوصل عيني عينها فازدهت عجباً وقالت ما لديك

أعليل أنت ماذا تشتهي قلت قطنى بيدي رمانتيك
فانثنت كبرا وقلت ويلتا او هذا كله يطلب ويك
أنا شمس وبعيد فلـكى وضيائي نافر من راحتيك
لو بدا أمرك لى من قبل ذا ما رأيت ناظرتى ناظرتيك
وشعره كله جيد مختار ينم عن خولته وصدق نزعتة الشعرية
وله ديوان شعر يوجد منه نسخة فى دار الكتب الملكية
بمصر توفى سنة سبع وعشرين وخمسمائة بجزيرة ميورقة وقيل
ببجاية — ومن ادبائها ابو العرب مصعب بن محمد بن ابي الفرات
القرشى ، قال العماد : ولد بصقلية سنة ثلاث وعشرين واربعمئة
وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة اربع وستين واربعمئة
قاصداً الى المعتمد بن عباد ، وله من أبيات

الى م اتباعي للأمانى الكواذب

وهذا طريق المجد بادی المذاهب

أهم ولي عزمان عزم مشرق

وآخر يثني همتي للمغارب

ولا بد أن أسأل العيس حاجة

تشق على أخفافها والغوارب

على لآمالى اضطراب مؤمل
ولكن على الأقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تصحبي الهون انه
وان خدعت أسبابه شر صاحب
ويا وطنى ان بنت غنى فأنى
سأوطن أكوار العتاق النجائب
اذا كان أصلى من تراب فكلها
بلادى وكل العالمين أقاربى

« وهذا من قول ابن المعتز

اذا كنت في الناس ذا ثروة
فأنت المسود في العالم
وحسبك من نسب صورة
تخبر أنك من آدم «
وما ضاق غنى في البسيطة جانب
وان جل الا اعتضت منه بجانب

اذا كنت ذا هم فكُن ذا عزيمة
فما غائب نال النجاح بغائب

- ومنهم عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الاغلبى السعدي

الصقلي المعروف بالقاضي الجليس - قال ابن شاعر الكتبي صاحب
قوات الوفيات تولى ديوان الانشاء للفائز (العلوي صاحب مصر)
مع الموفق بن الخلال - ومن شعره

المت بنا والليل يزهي بلمة
دجوجية لم يكتهل بمد فوداها
فأشرق ضوء الصبح وهو جبينها
وفاحت أزاهير الربى وهي رياها
إذا ما اجتذت من وجهها العين روضة
اسالت خلال الروض بالدمع أمواها
واني لأستسقى السحاب لربها
وان لم تكن الاضلوعى مأواها
إذا اشعلت نار الأسي بين أضلعي
نضحت على حر الحشا برد ذكراها
وماني أن يصلي الفؤاد بجرها
ويضرم لولا أن في القلب سكنهاها

ومنه

ومن عجب أن الصوارم والقنا تبيض بأيدي القوم وهي ذكور
واعجب من ذاتها في اكفهم تأجج ناراً والاكف بحور

قال : وكان ابن الحباب كبير الانف وكان الخطيب أبو القاسم
هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد مولعا بأنفه وهجاءه وذكر
أنفه في أكثر من ألف مقطوع فانتصر له ابن قادوس الشاعر فقال

يا من يعيب أنوفنا الشـم التي ليست تعاب
الأنف خلقـة ربنا وقرونك الشم اكتساب

مات سنة احدى وستين وخمسة و قد أناف على السبعين
- ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن بشرون الكاتب
الصقلي صاحب كتاب المختار في النظم والنثر ، لا فاضل العصر
ذكره العماد وأورد له شعراً جزلاً . ومنهم تاج الدولة جعفر بن
ثقة الدولة يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسين القضاعي الكلبي
صاحب صقلية ، قال ابن خلكان كان أديباً شاعراً وله الابيات
السائرة في غلامين على أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلى الآخر ثوب
ديباج اسود وهي

ارى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق
وفي ثوبين قد صبغا صباغ الخد والحدق
فهذي الشمس في شفق وهذا البدر في غسق

وكان عمله لهذه الابيات سنة سبع وعشرين وخمسة .
ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب قال ابن القطاع :

كان في عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات وله

قومي اللذين اذا السنابك انشأت

دون السحاب سحائباً من عثير

برقت صوارمهم وأمطرت الطلا

علقاً كثرثار الحيا المتفجر

الواترين فلا يقاد وتيرهم

والفاتكين بحمير وبقيصر

والماعمين حمام ان يرتمي

والحامسين لكل داء يعترى

- و ابو الفضل مشرف بن راشد قال ابن القطاع القائل

سرت ورداء الليل اسحج حالك

ولا سائر الا النجوم الشوابك

عشية اعشي الدمع انسان مقلتي

ونمت بأسرار الدموع السوافك

وطاف الكري بالطرف وهو محجب

كما طاف بالبيت المحجب ناسك

سرت موهنا ثم استقلت فودعت

مجاذبا حقف من الرمل طانك

به غصن بان أثمر البدر طالماً
عليه قناع من دجى الليل حالك
واحور مكحول المدامع عاقى
عن الصبر فاستولت عليه المهالك

- والامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلابى قال ابن القطاع :
كان من أفاضل العلماء ، وسادات الامراء ، وذو يد في الفقه
والحديث وله :

تقول لقد رأيت رجال نجد	وما ابصرت مثلك من يمان
ألفت وقائع الغمرات حتى	كأنك من رداها في امان
الي كم ذا المهجوم على المنايا	وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء	ولم أسمع بكاي جبان

وقال في ابن عمه شكاية

ظننتك سيفاً أنتضيك على العدى
وما خلت اني انتضيك على نفسى
وجئتك ابني رفعة وكرامة
فأمسيت مهوراً بقربك في حبس

بلرم قصبة هذه الجزيرة ، وسيأتى القول عليها مفصلاً عند ذكر وصولنا إليها ان شاء الله . وبين مدينة بلرم هذه ومدينة مسينى توجد المدن الآتية واقعة على ساحل البحر غربى هذه الجزيرة وهي مدينة ثرمة وليبرى وبقطش وجفلوذ والقارونية وقلعة القوارب وميلاص وجطين (١) وشنت ماركو . وبين مسينى وبلرم على راس البحر شرقى الجزيرة وجنوبيها تقع البلدان الآتية . على الترتيب الآتى هكذا . مدينة طبرمين بشرقى مدينة مسينى على مرحلة منها - وهى مدينة أزلية قديمة من أشرف البلاد وأعيانها (٢) ، وقلعة حصينة من اصول القلاع وأركانها ، وهى على جبل مطل على البحر يسمى جبل الطور (٣) وفيها كما حدثنى ابو عبد الله الصقلى الفليسوف (٤) ملعب من ملاعب الروم القديمة كأنه شعب بوآن الذى يقول فيه ابو الطيب المتنبى

(١) ينسب اليها على بن عبد الله الجطيني كما قال ياقوت

(٢) نزهة المشاق (٣) نزهة المشتاق (٤) سميته الرحالة قريباً

مغاني الشعب طيبا في المغني
بمنزلة الربيع من الزمان
ملاعب رجنة لو سار فيها
سليمات لسار بترجمان
طبّت فرساننا والخيّل حتى
خشيت وان كرم من الحران^(١)
غدونا تنفض الاغصان فيه
على أعرافها مثل الجمان^(٢)
فسرت وقد حجب الشمس غني
وجئن من الضياء بما كفاني^(٣)

-
- (١) يقول : دعت هذه المغاني لطيبها خيلنا وفرساننا الى
المقام فاستهوت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت على خيلنا أن
تقف فلا تبرح هذا المكان وان كانت كريمة لا يعرفها الحران
(٢) يقول انه كثير الامواه والشجر فالندي يسقط على
اشجاره ليلا فهي تنفض على اعراف الخيل مثل الجمان اي النفضة
(٣) يقول سرت وهذه الاشجار تحجب غني حر الشمس
وتلقى على من الضياء ما احتاجه

والقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفر من البنان (١)

لها ثمر تشير اليك منها
بأشربة وقفن بلا أواني (٢)
وامواه يصل بها حصاها

حليل الحلي في أيدي الغواني
وقد فتح المسلمون هذه المدينة أيام ابراهيم بن احمد
ابن الاغلب - وكان عادلاً حازماً في اموره ، آمن البلاد ،
وعصف بأهل البغى والفساد (٣) وبني الحصون والمحارس
على سواحل البحر حتى كان توقد النار من سبته فينتهي

(١) الشرق الشمس يقول هذا الشجر كثير الورق ملتف
فضوء الشمس يدخل من خلاله فيكون على الثياب كأنه الدنانير
غير أنه يفر من الاصابع (٢) يقول هذه الاغصان ثمارها
رقية فكأنها لذلك اشربة قائمة بنفوسها ولا اواني لها وهذا
ينظر الى قول البحتري -

يخفى الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير اناء
(٣) اتى عليهم واهلكهم

الخبير الى الاسكندرية في الليلة الواحدة^(١) وذلك^(٢) لسبع بقين من شعبان سنة تسع وثمانين ومائتين الموافق اول أغشت الرومى سنة اثنتين وتسعمائة . وكان لفتح هذا البلد اسوأ وقع فى نفس الانبرور صاحب القسطنطينية حتى بقى سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون^(٣) — ثم مدينة قطانية على ستة أميال من مدينة لياج الواقعة بينها وبين طبرمين ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر فى سفح جبل النار وتسمى الآن مدينة الفيل لأن فيها طاسما من حجر على صورة فيل كان منصوباً فيما غبر من الأيام على بناء شاهق ثم نقل ونصب داخل المدينة^(٤) وبهذه المدينة الاسواق العامرة ، والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والفنادق والحمامات — ثم مدينة سرقوسة^(٥) شرقي مدينة قطانية على مرحلتين كبيرتين

(١) ابن الاثير (٢) أى فتح المسلمين مدينة طبرمين

(٣) ابن الاثير (٤) نزهة المشتاق

(٥) هي مسقط رأس الشاعر ابن حمديس وولده محمد بن حمديس

منها . وهي من مشهورات المدن وأعيان البلاد ، تضرب
اليها اكباد الابل من كل حاضر وباد ، وهي على ساحل البحر
والبحر محقق بها من جميع جهاتها ، وبها ما بأكبر المدن من

ذكره العماد الكاتب وقال انه أشعر من والده وأورد له شعراً
جزلاً . ولأن وقتها متأخر عن وقت الرحلة لم نتعرض لهما في
الرحلة ، وكذلك ينسب اليها ابو عمرو عثمان بن علي بن عمر
السرقوسي النحوي قال السلفي كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله
تواليف في القراءات والنحو والعروض وجاء القاهرة وصارت له
حلقة للاقراء في جامع عمرو . وينسب اليها الفقيه ابو القاسم
عبدالرحمن بن أبي بكر السرقوسي ذكره العماد في الجزيرة وأورد
له شعراً :

وقد جاءت سرقوسة في شعر لابن قلافس السكندري يصف
به مراكبا سار به الى صقلية قال :

ثم استقلت بي على علاتها	مجنونة سبحت على مجنون
هو جاء تقسم والرياح تقودها	بالنون انما من طعام النون
حتى اذا ما البحر ابدته الصبا	ذا وجنة بالموج ذات غصون
القت به النكباء راحة طائت	قلبت ظهور مشاهد لبطون
وتكفلت سرقوسة بأماننا	في ملجأ للخائنين أمين

الأسواق والخانات والمساجد والحمامات والمباني الرائقة
والأفنية الواسعة الموثقة ، ولها إقليم كبير طوال كله مزارع
وجنات وأثمار . وقد ما كان بها سرير ملك الروم ، فلما ملك
المسلمون بعض الجزيرة نقلت دار الملك إلى مدينة قصر يانه إلى أن
املك المسلمون سائر الجزيرة . وقد فتح المسلمون سرقوسة
هذه رابع عشر رمضان سنة أربع وستين ومائتين الموافق
عشرين مايو الرومي سنة سبع وسبعين وثمانمائة — ثم مدائن
نوطس وشكالة ورغوص وبثيرة^(١) وكر كنت^(٢) وشاقفة^(٣)

(١) وهي بلد عبد الرحمن بن محمد بن عمر البثيري الصقلي
ذكره العماد الكاتب في خريدة العصر وأورد له قصيدة مدح بها
رجار (روجر النور مندى) (٢) ينسب إليها محمد بن الحسن
ابن علي أبو بكر الكركنتي الفقيه المالكي قال المقرئ في كتاب
المقفي كان من الأخيار وأفاضل المسلمين قدم الاسكندرية وتوفي
سنة ٥٣٧ (٣) قال ياقوت ينسب إليها أبو عمر عثمان بن حجاج
الشافعي الصقلي من سكان الاسكندرية لقيه السلفي وعلق عنه
وتوفي في محرم سنة ٥٤٤ وتفقّه على مذهب مالك على الكبر
وكتب كتباً كثيرة في الفقه

ومازَر (١) ومرسى على وطرا بنش (٢) ومداين اخرى
كثيرة (٣) وكلها على ساحل البحر كما اسلفنا عدا مدينة

(١) واليه ينسب ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد التميمي
المازري الفقيه المالكي المحدث قال ابن خلدكان هو أحد الاعلام
المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام عليه وشرح صحيح مسلم
شرحاً جيداً سماه كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم وعليه بنى
القاضي عياض كتاب الاكمال . وله في الادب كتب متعددة وله
كتاب ايضاح المحصول في برهان الاصول وكان فاضلاً متفناً
وتوفي في الثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة ست وثلاثين
وخمسمائة وعمره ثلاث وثمانون سنة

(٢) ينسب اليها عبد الرحمن بن أبي العباس الكاتب الطرابنشي
اورد له العماد الكاتب في الخريدة ابياتاً جزلة في وصف مدينته
وكذلك ينسب اليها ابو الحسن بن عبد الله الطرابنشي ذكره
العماد ايضاً واورد له شعراً ، وسليمان بن محمد الطرابنشي ذكره ابن
القطاع في الدرة الخطيرة .

(٣) ومن مدائن صقلية مدينتا سمنطار وبلنوبة ذكرهما
ياقوت قال ومن الاولى ابو بكر عتيق السمنطاري الرجل الصالح

العابد له كتاب كبير في الرقائق وكتاب دليل القاصدين يزيد على عشرة مجلدات قال : قال ابن القطاع . العابد ابو بكر عتيق بن علي بن داود المعروف بالسمنطاري احد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العاملين ، وعمن رفض الاولى ولم يتعلق منها بسبب ، وطلب الاخرى وبالغ في الطلب ، وسافر الى الحجاز فخرج وساح في البلدان من ارض اليمن والشام الى ارض فارس وخراسان ولقي من بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناء على حروف المعجم في غاية الفصاحة وله في الرقائق واخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق الى مثله في نهاية الملاحاة وفي الفقه والحديث تأليف حسان في غاية الترتيب والبيان وله شعر في الزهد ومكائد الزمان - ومنه قوله

فتن أقبلت وقوم غفول وزمان على الايام يصول
ركبت فيه لا تريد زوالا عم فيها الفساد والتضليل
ايها الخائن الذي شأنه الانم م وكسب الحرام ماذا تقول
بعت دار الخلود بالثمن البخس م بدنيا عما قريب تزول
قال وقد توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٤٦٤ - قال
ياقوت والي بلنوبة ينسب ابو الحسن علي بن عبدالرحمن واخوه

رغوص فان بينها وبين البحر نحوًا من اثني عشر ميلاً —
اما مدينة قَصْرِيَّانِه فهي في وسط الجزيرة على سن جبل
وهي مدينة ازلية قديمة ، وقد كان فيها سرير ملك الروم
نقل اليها كما أسلفنا بعد أن ملك المسلمون مدينة سرقوسة
لحصانها ، وقد فتح المسلمون هذه المدينة يوم الخميس
منتصف شوال سنة اربع واربعين ومائتين الموافق سابع
يناير الرومي سنة تسع وخمسين وثمانمائة ، ولما فتحها العباس
الأغلب بنى فيها في الحال مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب
فيه يوم الجمعة وذل الروم بصقلية يومئذ ذلاً عظيماً .

« وبعد » فهذا الذي ذكرنا من بلدان هذه الجزيرة
انما هو غيض من فيض ونحن اذا حاولنا ذكر سائر المدن

عبد العزيز الصقلي البلقوني القائل

فاني اليك مشوق مشوق	بحق المحبة لا تجفني
فذلك عهد وثيق وثيق	ولا تنس حق الوداد القديم
فاني عليك شقيق شقيق	وكن ما حييت شقيقاً عليّ
فوالله اني صدوق صدوق	ولا تهمني فيما أقول

والقرى والقلاع المعروفة في هذه الجزيرة ، لاحتجنا الى اسفار كثيرة ، وفي هذا القدر كغناء .

وقد رأينا من تمام الفائدة أن نصور للناظر في هذه الرسالة جزيرة صقلية وبعض بلدانها المشهورة وبلاد قلو رية ومدينة ريو وجزائر اقريطش وسردينية وقرشقة وميورقة ومثورة وبابسة ومدينتي الاسكندرية والمرية وبالجملة كل ما جاء له ذكر في هذه الرسالة .

وقد آن لنا أن نرجع الى ما نحن بصددده

مدينة مسيني

اما مدينة مسيني فهي في ركن من الجزيرة بشرقيها (١) مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها ، ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية كما اسلفنا لأن المراكب الكبار

تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسكه ولا يحتاج الى زواريق
في وسقها ولا في تفرينها الا ما كان مرسياً على البعد منها
يسيراً فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها
واصطبالاتها وذلك لا فراط العمق فيها (١)

- وهذه مسيني هي رأس جزيرة صقلية وهي كثيرة
العمائر والضياع، وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين
ذات اثمار كثيرة ولها أنهار غزيرة عليها ارجاء جمّة (٢)

ولما نزلت هذه المدينة سامت امتعتي الى أحد الحمالين
وقصدت معه الى أحد الفنادق فذهب بي الى فندق قائم
على جبل مطل على المدينة، وكان لأحد مغاربة أفريقية، فاحتفى
بي صاحبه وبالغ في اكرامي واحتفل في راحتي حتى أنساني
برقة حاشيته وطيب أنسه مجاشم السفر وذل الاغتراب - وقد
صادفت في هذا الفندق أبا عبد الله الصقلي الفيلسوف
وكان قد نهد حفظه الله من بلرم الى مسيني لما علم بقدومي

فكمل انسى به وعراى من الغبطة والسرور ما لا يقوم بالعبارة
عنه بيان . ولا يروم اطلاع فجه لسان . ولا سيما حين أخبرنى
ابو عبد الله انه ينتوى الذهاب الى الانداس وهي منتوى
ومقصدى .

ولما رأيت ابا عبد الله - وكنت لم اره قبل ذلك بيدانى
سمعت بفضله الجمل وعلمه الغزير حتى شغفت برؤيته - والأذن
تعشق قبل العين احيانا - رأيت منه رجلا تشد اليه الرحال ،
وتضرب الى علمه كباد الآبال ، ويصاب عنده مقطع الحق
واليقين ، ويُذفى لديه مفصل السداد فى علوم الحكمة والدين

من مبلغ الاعراب انى بعدها

شاهدت رسطاليس والاسكندرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما

رد الاله نفوسهم والاعصرا

ولا جرم فان ابا عبد الله فيلسوف عصره . وواحد

قطره . وهو فى علم الطب والحكمة منقطع النظير لا تكاد

تفتح العين على مثله . وقد حذق اللسان الاغريقى واحكم
معرفته حتى كأنه من أهل . وهو فى الادب منظومه
ومنتوره نادرة الفلك وبكر عطار .

ولقد أقيمت فى مسينى ثلاثة ايام بلياليها أنسانى فيها
ابو عبد الله الصقلى الفيلسوف بأدبه وظرفه ورقة حاشيته
ما يعرف الغريب فى البلد النازح من الوحشة والانقباض .
ثم علمنا فى اليوم الرابع لمقامنا أن قد ارست على ميناء هذا
البلد سفينة كبيرة قادمة من القسطنطينية العظمى قاصدة
الى بر الاندلس ، فاعتزمت أنا وأبو عبد الله أن نساافر فيها ،
وكان هذا العزم من تمام فضل الله علينا وحسن توفيقه اذ
أصبنا فى هذا المركب عند نزولنا فيه منية النفس ومطمح
الروح - فضل المدينة - التى ضرب الدهر بينى وبينها أياما كانت
على قلتها كأنها شهور بل أعوام ، وكان معها صاحبها علم
المدينة وقلم الرومية . وهن كعالمات من حذقن الغناء ونيفن
فيه بعد أن تعلمنه فى المدينة المشرفة على صاحبها افضل

الصلاة وأنتم التسليم ، وهذه قلم كما أخبرتنى انداسية الاصل
رومية من سبى البَشَكَنس وحملت صغيرة الى المشرق فوقعت
بالمدينة المنورة وأقمت هنالك الغناء ، ثم اشدتريت مع علم
لامير المؤمنين بالانداس عبد الرحمن الناصر

وقد أخبرتنى فضل أن المركب الذى كانت فيه لما
ارسي على مسينى بعد ارسائه على ريو لشراء ما يحتاج اليه
من الميرة والطعام القى في روعها هي ومن معها أن ينزلن
في مسينى ويتركن هذا المركب - وهو لامير المؤمنين
عبد الرحمن الناصر - خشية أن يأسره ومن فيه عمال المعز
لدين الله الفاطمى لان بلاد صقلية احدى ولايات المعز ، وقد
علمت أن المركب كان قد تحرش وهو ذاهب الى المشرق
بمركب المعز ، فأحفظ المعز هذا الامر واخذه منه المقيم
المقعد^(١) وحمله على أن يطوى كشحه^(٢) على النار من
الناصر - ثم أقامت فضل هذه المديدة في فندق من فنادقها،

في رُبض من ارباضها ، فقلت يا عجباً كل العجب
أليس غريباً ان نكون ببلدة كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم

* * *

أما نبأ هذه السفينة الرومية فذلك أن قسطنطين بن
ليون انبرور الروم « امبراطور دولة الرومان الشرقية »
كان قد اهدى منذ ثمان حجَج الى امير المؤمنين عبد الرحمن
الناصر هدايا ذات قدر عظيم ، يتقرب بها اليه ، ويصيب
بذنبه لديه ^(١) واستدفاعاً لمكره وكيدته ، واستجلاباً لعطفه
ووده ، واستظهاراً به على أخذ بلاده « بلاد قسطنطين »
المعز لدين الله ^(٢) وكان من هذه الهدايا كتاب ديستقوريدس
الطبيب ، مصور الحشائش العجيب ، وكتاب هروشيش
« هيرودوتس » المؤرخ الرومي العظيم ، وكان الكتاب
الاول مكتوباً بالاغريقي ، وهو اليوناني القديم ، والكتاب

(١) يتملقه - والبصيص في الاصل تحريك الكتاب ذنبه
طمعاً أو خوفاً (٢) كان الفاطميون زمن هذه الرحلة في حروب
لا تكاد تنقطع بينهم وبين الرومان ، وقد أخذوا من الرومان
صقلية والجزء الجنوبي من ايطالية - راجع الكلام علي صقلية

الثاني كان مكتوبا باللسان اللاتيني . وكتب قسطنطين فيما
كتب اذ ذاك الى الناصر « ان كتاب ديسقوريدس لا تجتنى
فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف
اشخاص تلك الادوية ، فان كان في بلدك من يحسن ذلك
فزت أيها الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هرودشيس
فعندك في بلدك من اللاتينيين من يقرؤه باللسان اللاتيني
وان كشفهم عنه نقلوه اليك من اللاتيني الى اللسان
العربي » - ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الاندلس
من يعرف الاغريقي ، فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة
الناصر كما هو لم يترجم الى العربي ، فاما ولي أمر الروم
ارمانيوس بن قسطنطين تقدم اليه الناصر ^(١) بأن يبعث رجلا
يعرف الاغريقي واللاتيني ليعلم له عبيد أيكونون مترجمين ^(٢)
فأرسل ارمانيوس في هذا المركب راهبا عظيما يسمى نقولا .
وقد أزلت لك أن ابا عبد الله الصقلي يحسن الاغريقي
احسانه للطب والفلسفة والنجوم ، وقد كان اخبرني أن

(١) أمره (٢) طبقات الاطباء

الناصر أرسل اليه يستحثه على الوفود اليه ليكون في خدمته ^(١) فكان ذلك سبباً في انعقاد الصحبة بيننا وبين هذا الراهب، وقد اصبنا منه رجلاً حيداً يثاظر يف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب.

* * *

وقد ألفينا في هذا المركب طبيين اندلسيين كانا قد رحلا الى المشرق منذ سنين واقاما هنالك نيفاً وعشرين سنة ودخلا دار السلام « بغداد » وقرأ فيها على ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة كتب جالينوس ثم قفلا راجعين الى الاندلس مسقط رأسهما . ونزلا في هذا المركب من أحد الثغور ، وهما أخوان يسمى أحدهما عمر والثاني احمد ^(٢)

(١) ذكر ابن جليجل ان أبا عبد الله الصقلي كان في الاندلس أيام الناصر مع الراهب نقولا وقال عنه انه طبيب فاضل وانه يعرف الاغريقى (٢) جاء في طبقات الاطباء أن هذين أحمد وعمر سافرا من الاندلس الى المشرق سنة ٣٣٠ هجرية ثم رجعا اليها سنة ٣٥١ واستخلصهما الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر لنفسه

وهما ابنا يونس بن احمد الحراني الطبيب المشهور ، وقد
اخباراني ان كتاب ديسقوريدس هذا كان قد ترجمه بدار
السلام ايام جعفر المتوكل الخليفة العباسي اصطفى بن بسيل
المرجم من الاغريقى الى العربى ، وتصفحه حنين بن
اسحاق فصصح الترجمة وأجازها - قالا : وقد ورد هذا
الكتاب الى بلادنا « الاندلس » وهو على ترجمة اصطفى (١)
وقد قرأناه وصححنا كثيراً من أسماء العقاقير التي لم يعرف
لها اصطفى اسماً في العربية ، وقد انتفع كثير من أهل
المشرق وأهل الاندلس بالمعروف منه - وفي الاندلس اليوم
من اخواننا الاطباء نفر توفروا على هذا الكتاب يصححون
اسماء عقاقيره ويعينون اشخاصها ، ومنهم اخونا البسباسي
والشجار وابو عثمان اليابسة ومحمد بن سعيد الطبيب (٢) .
وكأننا بسيدنا الناصر ادام الله تأييده وقد ابى الا ان يقر
الامر في نصابه ، ويغمد السيف في قرابه ، ويتم امر هذا

(١) طبقات الاطباء في الكلام علي ابن جليل

(٢) طبقات الاطباء

الكتاب على مابه . فطلب الى ارمانوس ما طلب ، وكل
ذلك من سيدنا فضل عناية منه بكل ما يجدى على بلاده
ويسمو بها صعداً الى ابعد مراتب العظمة الذهنية كما
أبعدت به وبأسلافه في سائر ضروب الحضارة ، وذلك لما
فطره الله عليه من العزيمة النافذة ، والهمة الطموح البعيدة
المرمى ، فلا يتعاضمه امر ، ولا تقف همته دون غاية ، وحتى
لا يحيك في صدر انسان ان خلفاء بنى العباس في المشرق ،
أو منافسيه الفاطميين في افريقية قد سبقوه الى شيء لم
يسبقهم هو اليه . وأنت تعلم أن هذه الدول الإسلامية
الثلاث ^(١) هي اعظم دول الارض اليوم شأنًا ، واضخمها
سلطانًا ، والقابضة على زمام الامور ، والمالكة اخصب
البلاد من هذا المعمور . والمستبحر عمران بلادها الى اكثر
من المتوقع المنظور . والتي تعد سائر دول الارض من هذه
الامم الحمراء كأنها تبع لها وعمال عليها ، فتراها لذلك تهالك

(١) الدولة العباسية والدولة الفاطمية والدولة الأموية

في كل آونة على الازدلاف اليها ، وتستنزل رصناها بالهدايا
والتحف ، وغريب النفائس والطُرُف ، وتستصرخها بعض^ة
على بعض فتكون الختوف ، أسبق ~~من~~ المغضوب عليهم
من السيوف

إنّا اذا ما أتاننا صارخ فزِع
كان الصراخ له قرع الظنابيب^(١)

ومن ثم ترى هذه الدول العظمى تتسامى في كل
ما يكسبها حسن الاثر ، وجميل الذكر ، ويملاً مسامع الدهر
حمداً وثناء ، وينبض له قلب الدنيا نفراً وعلاء ، فتراها لذلك
آخذةً بيد العلم والعلماء ، مألثة باعطيائها أيدي الشعر
والشعراء ، حتى العلوم الفلسفية بجميع ضروبها من الهية
وطبيعية ورياضية وطبية وفلكية تعضدها وتغري القارئ

(٢) البيت لسلامة بن جندل - يقول : اذا أتاننا مستغيث
كانت اغاثته الجد في نصرته يقال قرع لذلك الأمر ظنبوبه اذا
جد فيه والظنبوب هو طرف العظم اليابس من الساق - فالشاعر
جعل قرع الصوت على ساق الخف في زجر الفرس قرعاً للظنبوب

عليها بالاستزادة منها والتقصى في البحث عن غوامضها ،
وتظهر الرغبة في الحصول على ما أخذها من ملوك الروم
الذين حشدت في خزائن كتبهم توالييف فلاسفة اليونان
الاقدمين .

ولقد اقلعت بنا السفينة باسم الله مجراها من ميناء
مسينى ، وبكرت مع البازى عليه سواد ، في فجر يوم الجمعة
سناخ ربيع الاول ، وذلك لثلاث عشر ليلة خلت من
شهر جونيئو الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد
السيد المسيح عليه الصلاة والسلام . وكان البحر هادئا ،
والنسيم فاترا عليلا ، وكانت قبة فضل ومن معها برأى منا
ومسمع ، وكان معنا اديب من ادباء صقلية لم نكن ندرى
أين وجهته والكنه نزل بعد ذلك فى جزيرة ميورقه ، وكان
قد ندّ منه عقيب افلاعنا من مسينى امر افضى الى حديث
لا علينا اذا نحن اوردناه فى هذه الرسالة تطرية للقول ،
وذلك انا بعد ان صلينا الصبح حاضرة وصلى معنا هذا

الاديب الصقلي رأيناه وقد انتحي ناحية وأخذ يصطبيح
ويلح على ابنة العنب يشربها صرفاً لا يقتلها بالماء ، فانكرت
عليه ذلك انكاراً شديداً وقلت له : ما تصنع بالحجر ، وان
اولها مروان آخرها لسكر ، فقال : لا اقول لك الا ما قال
الاخطل لعبد الملك بن مروان اذ قال له عبد الملك مثل قولك
هذا فقال له الاخطل : ولكن بين هاتين لمنزلة ما ملك
امير المؤمنين فيها الا كعلقة ماء من الفرات بالاصبع

ثم انشد الاخطل

اذا ما نديني علني ثم علني

ثلاث زجاجات لهن هدير

خرجت أجر الذيل تبها كأنني

عليك أمير المؤمنين أمير

« وبعد » فله ذلك الطائر الفردوسي البديع الذي كأنه

روح هبط على هذه الغبراء من المحل الارتفاع ومعه تلك

الهدية التي لا هدية مثلها ، تلك البذور الثلاث ^(١) التي

(١) تشير بذلك الى خرافة جميلة ذكرها المسعودي في كتابه =

مروج الذهب وهي أن أحد ملوك الهند الاقدمين كان جالسا ذات يوم في قصره واخوته حوله فأخذت عينه طائراً قد أفرخ في أعلا قصره ورآه يضرب بجناحيه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر الى حية تنساب الى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه في منقاره حبة وفي مخلابيه حبتان وجاء الى الملك وألقى ما كان في منقاره ومخلابيه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدي الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى الا انه اراد بلا شك مكافأتنا على فعلنا به فاخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر الى حيرة الملك في الحب أيها الملك ينبغي أن يودع النبات ارحام الارض فانها تخرج كنه ما فيه فتقف على الغاية منه واداء ما في مخزونه وممكنونه فدعا بالاكرة وامرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعذب وهم يرمقونه والملك يراعيه الى أن انتهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً فأمر الملك بمصر مائه وان يودع في اوان وافراد حب منه وتركه على حاله فلما صار في الآنية عصيراً هدر وقذف بالزبد وقاحت له

أظنه إلا أنه اختلسها من عنب الجنة ليتحفنا بها فنز درعها
ونفزع الى عصيرها في هذه الحياة المحزونة المفعمة آلاما

روائح عبقة فقال الملك علىّ بشيخ قاتني به فلدد له من ذلك في اثناء
فراّه لونا عجيباً ومنظراً كاملاً ولونا ياقوتيا احمر وشعاعا نيراً ثم
سقوا الشيخ فما شرب ثلاثاً حتى مال وأرخی من مآزره الفضول
وحرك رأسه ووقع برجليه فطرب ورفع عقيرته يتغني فقال
الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا الا ترى
الى الشيخ كيف عاد في حال الصبي وسلطان الدم وقوة الشباب
ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك ملكك ثم
ان الشيخ افاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته
فكشف عني الغموم وازال عن ساحتي الاحزان والهموم وما
اراد الطائر الا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا
شراب اشرف أهل الارض وذلك انه رأى شيخا قد حسن وقوى
حيله وانبسط في نفسه وطرب في حال طبيعة الحزن وسلطان
البلغم وجاد هضمه وجاءه النور وصفا لونه واعتزته اريحية فأمر
الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب
فيه فان كان فلا يشربه غيري فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نما في
أيدي الناس واستعملوه

ليسرّي عنا ويجلو منا صداً الحس ، وينفى الهم عن ساحة
النفس

ان الذي جعل الهموم عقارباً جعل المدام حقيقة دريافا

أقتلاهمى بصرف عقار واتركا الدهر فما شاء كانا
إنّ للمكروه لذعة همّ فاذا دام على المرء هانا

اذا ما أتت دون اللهاة من الفتى

دعاهم من صدره برحيل

فقلت له ولكنها قبّحها الله تسيء من المرء أخلاقه ،
وتحمل النابه ، وترفعه الى اسفل ، وتهوى بالشرف الرفيع
الى الحضيض الا وهدهد ، والله ذلك القرشى حين يقول
من تفرع الكأس اللثيمة سنّه

فلا بد يوماً أن يسيء ويجهل

ولم أر مطلوباً أحسن غنيمة

واوضع للاشراف منها واخلا

فسرعان ما أنشد
إذا صدمتني الكأس أبدت محاسني
ولم يخش ندماني أذاتي ولا بخلي
ولست بفحاش عليه وإن أسا
وما شكل من آذى نداماه من شكلي
ثم قال : والخمر لذلك خليقة ان لا يشربها الا الملوك
وأشباه الملوك ، أما السوق والحشو والغوغاء والحمقى ومن
اليهم فيجب أن يُصَلَّبوا أو يُقَتَّلوا أو تُقَطَّعَ أيديهم
وارجلهم اذا هم شربوها
والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عدوا باكفائها

وجدت أقل الناس عقلا اذا انتشي
أقلهم عقلا اذا كان صاحيا
تزيد حُمَيَّاهما السفية سفاهة
وتترك اخلاق الكريم كما هيا
وبودى لو أن الكأس بألف والحير في وجه الاسد

حتى لا يشرب الا كريم ، ولا ينكح الا شجاع
اجل عن اللثام الراح حتى كأن الراح تمصر من عظامي
ورحم الله أبا بكر الهذلي اذ يقول للمنصور وقد سأله
عن النبذ : لقد تمادت فيه السفهاء ، حتى كرهته العلماء
فقلت له أما تخشى الله يوم الحساب : فقال

اذا صليت خمسا كل يوم فان الله يغفر لي فسوقي
ولم أشرك برب الناس شيئا فقد امسكت بالدين الوثيق
فهذا الدين ليس به خفاء دعوني من بنيات الطريق

الا لا يغرنك ذوسجدة يظل بها دائما يخدع
وما للتعق لزمت وجهه ولكن اياي مستودع
ثلاثون الفا حواها السجود فليست الى ربها ترجع
ورد اخو الكاس ما عنده وما كنت في رده اطمع

اما النبذ فلا يدعرك شارب

واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء

قوم يداوون عما في نفوسهم
حتى اذا استمكنوا كانوا هم الداء
مشمرين الى انصاف سوقهم

هم الذئاب وقد يدعون قراء

فقال أبو عبدالله الفيلسوف : الشراب ضار ونافع، اما
أنه نافع فليبدن بأشراقه وتقوية الحرارة الغريزية وانعاشها
وانضاج الرطوبات وتنقيح المجارى وإزالة سددها وتقوية
الهضم وانهارة الدم وادرار الصفراء وترطيبها — وللنفس
بانبساطها وتفتيح آمالها وتشجيعها وقتل الهم والفكر الفاسد
ومن ثم كان أنفع الأشياء للماليخوليا ثم هو يؤدم بين
القلب والقباب، ويبعث الشوق القديم الذى قد ضل في
الاحشاء — وكل أولئك اذا استعمل على الوجه الذى يذبغي
والا استحالته هذه المنافع مضار، فترى عوض السرور هما
وغماً وضجراً وسوء خلق، وعوض الصحة مرضاً مزمناً
أو موتاً فجائياً، وان ادامة الشراب تبلى الذهن وترخي
العصب وتوهن قوى الدماغ وتورث الرعشة والتشنج،

وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينبغي أن
انجب كان الولد أحق

« وبعد » فإن أصدق ما جاء في الخمر قول الله جل
شأنه : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع
للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما ثم يقول سبحانه يصف
خمر الجنة « لا فيها غول »^(١) ولا هم عنها ينزفون « فكان
السرف في تحريمها هو أنها تغتال عقولنا وتشربها وتورثها
الخليل والصداع كما قال الأول

وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول
وما أطفئ نول بعض الظرفاء وقد ترك النبيذ فقيل

(١) الغول الصداع والخمار ، ولا ينزفون يسكرون وتذهب
عقولهم ، والاثم في قوله جل شأنه واثمهما أكبر من نفعهما فهو
ما يترتب على اقتراف الذنوب والمعاصي من المضار قال أبو نواس
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم

واسميت سرح اللهو حيث اساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه

فاذا عصارة كل ذاك أثم

له كيف تتركه وهو رسول السرور الى القلب فقال نعم
ولكنه بثس الرسول يُبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس
ويشبه ذلك قول المجنون لملك من الملوك وقد استظرفه
واختار أن يكون نديماً له وعرض عليه الشراب فقال المجنون
أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلي وأنا أشربه لأصير
مثل من ! وقال عبدالعزیز بن مروان لنُصَيْب الشاعر يوماً
هل لك فيما يُثير المحادثة - يريد المنادمة - قال أصلح الله
الأمير الشَّعَر مفلفل واللون مرمد ولم أقعد اليك بكرم
عنصر ولا بحسن منظر وإنما هو عقلي ولساني فان رأيت
الآ تفرق بينهما فافعل . وقيل لاعرابي لم لا تشرب ؟ فقال
لا أشرب ما يشرب عقلي .

وناهيكم بعد ذلك بما يستتبعه ادمان الشراب من
الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن السكر والعريضة ،
وإيقاع العداوة والبغضاء والموجدة ، ومن تقبيح الحسن
وتحسين القبيح واغرائه بالفسوق وتعدى حدود الله وقلة
الاكتراث لها - وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ

يقول : لا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن : ولقد
مرت اعرابية بقوم يشربون نبيذا فسقّوها فلما شربت
أقداحاً اعترتها أريحية فقالت أيشرب هذا نساؤكم قالوا نعم
قالت إذن زنين ورب الكعبة فما يدري أحدكم من أبوه !

ولاصحاب الشراب ولوع به واستهتار الى الحد الذي
لا يفكرون معه في دين ولا مروءة ، قيل لأبي نواس
اتشرب الخمر قال نعم : اذا اشترى بثمان خنزير قد سرق
حتى يحرم ثلاث مرات وهو القائل

الا فاسقني خمرأً وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سرأً اذا امكن الجهر

فما الغبن الا أن ترى صاحبا

وما الغنم الا أن يتعقني السكر

وقيل لثمامة لم تشرب الخمر وهي نزيل العقل فقال ان
زال اليوم لا يزول غداً . وباع بعض الاشراف من اصحاب
الشراب ضيعة فقليل له احضر العشية للاشهاد فقال لو

كنت ممن يهتان بالعشيات لما بعث الضيعة . وقال رجل
لآخر منهم لقد وجهت اليك رسولا عشية أمس فلم يجده
فقال هذا وقت لا أكاد أجده فيه نفسي . ويقول أحدهم
وددت أني أكون بعوضة فأموت تحت قربة نبذ حتى يكون
موتي في ظلال نعيم . ولما ولي الحسن بن زيد رضي الله عنه
المدينة قال لابن هرمة الشاعر : لست كمن باع دينه رجاء
مدحك أو خوف ذمك فقد رزقني الله بولادة نبيه صلى الله
عليه وسلم المادح وجنبنني المقابح . وإن من حقه على أن
لا أغضى على تقصير في حق ربه وأنا أقسم لئن أتيت بك
سكران لأضربنك حدا للخمير وحدا للسكر ، ولا يزيدن
لموضع حرمتك بي فليكن تركك ذلك لله نعتن عليها ولا
تدعها للناس فتوكل اليهم فقال ابن هرمة .

نهاني ابن الرسول عن المدام	وأدبني بأداب الكرام
وقال لي اصطر بها ودعها	لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبري عنها وحي	لها حب تمكن في عظامي
أرى طيب الحلال على خبثنا	وطيب النفس في خبث الحرام

وقيل لرجل من أصحاب الشراب ما تقول في الماء فقال
هو الحياة ويشركني فيه الحمار ، فقيل له فالابن قال مارأيته
الا ذكرت أمي واستحييت قيل فالخمر قال تلك السارة
البارة شراب أهل الجنة . ودعا الوليد بن يزيد شراعة من
الكوفة وهو من فتيانها فلما قدم عليه قال له اني والله لم
أدعك لا سألك عن قرآن أو لأستفتيك في سنة فقال لو
سألتني عنها لأصبتني فيها ثورا ، فلم دعوتني قال لأسألك
عن الفتوة فقال انا دهقانها الخبير وعالمها الطبيب فسل
فقال ما تقول في نبيذ التمر ، قال اشربه حتى تحمر ، قال فنبيذ
الذن ، قال اشربه حتى تجن ، قال فالداذي قال احلى من الماذي
قال فنبيذ الزبيب فستر وجهه وقال العظمة لله ، قال فالخمر
قال لا أرى شربها قال ولم قال لاني لا أؤدى شكرها

وهذا قليل من كثير ورحم الله من قال

لم يبلغ الشيخ ابليس ارادته

حتى تكاثف في عنقوده العنب

وفي الحق ما يقول ابليس : مهما اعجزني ابن آدم فلن

يعجزني اذا سكر أن آخذ بزمامه فاقوده حيث اشاء واحمله
على ما اريد

ولربما بلغت جنابة الشراب وادمانه ، إلى ما يأنف
الحيوان الاعجم من اتيانه . رَوَا ابْنُ قَيْسٍ بنِ عَاصِمٍ اَحدُ
أَشْرَافِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ تَاجِرُ خَمْرِ فَيَبْتَاعُ
مِنْهُ وَيَقِيمُ الْخَمَارَ فِي جَوَارِهِ حَتَّى يَنْفَدَ مَا عِنْدَهُ فَشَرِبَ قَيْسٌ
ذَاتَ يَوْمٍ فَسَكَّرَ سَكْرًا قَبِيحًا فَجَذِبَ ابْنَتَهُ وَتَنَاولَ ثَوْبَهَا
وَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ وَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ ثُمَّ انْتَهَبَ مَالَ الْخَمَارِ وَأَنْشَأَ
يَقُولُ :

مَنْ تَاجِرٌ فَاجِرٌ جَاءَ الْإِلَهِ بِهِ
كَأَنَّ لِحِيَّتَهُ أَذْنَابَ أَجْمَالٍ
جَاءَ الْخَبِيثُ بَيْبِسَانِيَّةً تَرَكْتَ
صَحْبِي وَأَهْلِي بِلاَ عَقْلٍ وَلَا مَالٍ
فَلَمَّا صَحَا أَخْبَرَ بِمَا قَالَ وَمَا صَنَعَ فَأَلَى أَنْ لَا يَذُوقُ خَمْرًا
أَبَدَ الدَّهْرِ

والسكارى فعال تضحك وتبكي، فمن ذلك أن سكرانا
وقع على الارض فجاء كلب يلحس فاه فجعل يقول
اخوكم ومولاكم وصاحب سركم
ومن قد نشأ فيكم وعاشركم دهرًا
وقال بعضهم كان في دارنا سكران فقعده على مصلى
فتبرز فيه فأخذت بيده الى المستراح فنام فيه فقالت جاريتي
يا عجبا كل شيء منه مقلوب يتبرز حيث ينام الناس وينام
حيث يتبرز الناس . وان صاحب السكر يصير اما الى قرنية
وهو الذى يضحك ويرقص ويحاكي، او الى كلبية وهو الذى
يهارش، أو الى خنزيرة وهو الذى يتقيا ويتبرز ويتلوث فيهما.
ومن هنا كانت الخمر حقيقة لا تتفق والمروءة والعزة
والكرامة، ولا تجتمع والشرف في غمد واحد

ومن خصائص الخمر أنها تخرق الكف وتورث
السخاء الكاذب حتى

ترى الماخن الشحيح اذا امرت

عليه لئلا فيها مهينا

وكما تكرر الشراب، تكرر التخرق في الكرم والسخاء
فيفضى ذلك على مرّ الايام الى الفقر والفلاكة والشقاء، ويم
ذلك زوج الشارب وولده وكلّ من يعول. وان هذه وحدها
لجرية لا تغتفر، ولو لم يكن ثمت لصاحب الشراب زاجر
غيرها لكان حرّى أن يقطع عنها

وقد عرف اصحاب الشراب بسوء العهد وفلة الحفاظ
وانهم اصدقاؤك ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى
تنكب، وما غلت دنائك حتى تنزف، وما رأوك بعيونهم
حتى يفقدوك

ارى كل قوم يحفظون حريمهم

وليس لاصحاب النبيذ حريم

اخاؤهم ما دارت الكاس بينهم

وكلهم رث الحبال سؤم

إذا جثتهم حيوك الفا ورحبوا
وان غبت عنهم ساعة فذميم
فهذا ثنائي لم أقل بجهالة
والكنى بالفاسقين عليم

وقد تبلغ الخمر بصاحبها الى أن تشوه خلقه فترى
مدمنها يوما وقد عظم أنفه واحمر وتورم كما يقول شاعر في
حماد الراوية

نعم الفتى لو كان يعرف ربه
ويقيم وقت صلاته حماد
هدات مشافره الدنان فأنفه
مثل القدم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه
فبياضه يوم الحساب سواد

أخو الشراب ضائع الصلاة
وضائع الحرمة والحاجات
وحانه من أقبح الحالات
في نفسه والعرس والمنجسات
أف له أف ألي آفات
خمسة آلاف مؤلفات

وجملة القول ليس بمد قول الله جلّ شأنه وأنهما أكبر
من نفقهما مجال لقائل ، والسلام على من اتبع الهدى .

وأنا في ذلك إذ اندفعت فضل المدينة تغنى على عودها
هذه الأبيات

بيد الذي شغف الفؤاد بكم
تفرج ما ألقى من الهم
فاستبقني أن قد كلفت بكم
ثم افعل ما شئت عن علم

قد كان صرم في الممات لنا
فعمجت قبل الموت بالصرم
فاستخف غناؤها ابا عبد الله حتى كاد أن يخرج
من جلده فرحا ، وتحرك الراحب واهتز ثم غمغم كلمات
ترجمها اليها ابو عبد الله بما يقارب قول الطائي حبيب
بن أوس

ولم افهم معانيها واسكن ورت قلبي فلم اجعل شجاءها
فصرت كأنني اعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها
ثم اندفعت تغنى

آها على بغدادها وعرافها
وظبائها والسحر من احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلها على اطواقها
متبخترات في النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من اخلاقها

نفسى الفداء لها فأى محاسن

فى الدهر تشرق من سنى اشراقها (١)

فأخذ العليج ينشج نشيجا حارا ويبكى بكاء عاليا حتى
إذا سككت عنه البكاء قال ما معناه : لقد هاجت لى داء
دفيئنا : ثم سكّت وسكّنت فضل وسكّتنا ومضت
السفينة لطيتها

وكان سيرنا فى محاذاة الساحل بحيث نبصره رأى
العين، وصرنا نسرّح النظر فى عماثر وقرى متصلة، وحصون
ومعاقل فى قلال الجبال مظلمة، وقد ارسل الله إلينا ريحا طيبة
رخاء زجت السفينة تزجية طيبة، فكانت تلك الساعة من
اطيب ما يظفر به السّفَر (٢)، فى هذا البحر، وما زلنا فى

(١) الايات لاجدى الجوارى اللائى اشترين من المشرق

لاحد امراء الاندلس واصمها قر ذكرها صاحب نفع الطيب

(٢) المسافرون

انعم حال واطيبها حتى استقام ميزان النهار وقام قائم الظهيرة
واذ ذاك ابصرنا عن يميننا تسع جزائر متجاورات آسننا فيها
دخانا يصعد من جبلين في جزيرتين من هذه الجزائر ،
فرايت بعض المسافرين وقد ضربوا باذقانهم الارض ، لما ألم
بهم من الذعر ، فقال ابو عبد الله الصقلي لا عليكم أيها
الاخوان ، ولا تكونن قلوبكم كقلوب الطير ، تنمات^(١) ،
كما ينمات الملح في الماء ، ان هذه البراكين مأمونة الناحية ،
وليست تزفر في النهار الا هذا الدخان الذي ترون ،
أما البركان المخوف فهو ذلك الرابض في الجزيرة الكبرى
« صقلية » وقد اتعدنا عنه والحمد لله ، وهنا سأله بعض
القادمين من المشرق الافاضة في وصف هذه البراكين وسر
تلك الفظائع التي تتوارد اخبارها الى المشرق ، فآخذ
ابو عبد الله يفيض في القول على طريقته الفلسفية ، ولا بأس
اذا نحن اثبتنا هنا زبدة قوله اتاما للفائدة

البراكين في صقلية

والجزائر المجاورة لها

وما قاله فلاسفة الاسلام في ذلك

قال ابو عبد الله ما ملخصه : من المعلوم الذي لا خفاء به ان هذه الكرة الارضية السابحة في الفضاء^(١) بجملتها واجزائها ظاهرها وباطنها طبقات ، ساف فوق ساف ، مختلفة التركيب والخلقة ، فمنها صخور وجبال صلبة ، واحجار وجماميد صلبة ، ورمال جريشة ، وطين رخو ، وتراب لين وسبخ وشورج ، بعضها مختلط ببعض ، أو متجاورة كما قال الله جل شأنه : وفي الارض قطع متجاورات : وهي مختلفة الالوان والطعوم والروائح ، فمن ترابها واحجارها واجبالها حمر وبيض وسود وخضر وزرق وصفر كما قال جل ثناؤه : ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها

(١) اخوان الصفاء - ومن ذلك تعلم ان العرب سبقوا غيرهم الى القول بكروية الارض وانها سابحة في الفضاء

وغرايب سود : وهى مع ذلك كثيرة التخلخل والثقب والتجاويف والعروق والجداول والانهار داخلها وخارجها ، كثيرة الاهوية والمغارات والكهوف ، وفيها من انواع المعادن السائلة والجامدة ما لا يحصى كثرة ، وهذه الاهوية والامواه اذا حى جوف الارض بتأثير الشمس فيه كتأثير القمر فى مد البحر وجزره سخنت تلك الامواه ولطفت وتحملت وصارت بخاراً وارتفعت وطلبت مكانا اوسع ، فان تكن الارض كثيرة التخلخل تحملت وخرجت تلك البخارات من تلك النوافذ ، وان يكن ظاهر الارض شديد التكاثف حصيفا منعها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج فى تلك الاهوية لطلب الخروج ، وربما انشقت الارض فى موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوى وهدة وزلزلة ، وان لم تجد لها مخرجا بقيت هناك محتبسة ، وتدوم تلك الزلزلة الى أن يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ وتتكاثف تلك البخارات وتجتمع اجزاؤها وتستحيل الى ماء وتخر راجعة الى قاع تلك الكهوف

والمغارات . وتمكث زمانا ، وكلما طال وقوفها ازدادت صفاء
وغلظا حتى تصير زئبقا رجراجا وتختلط بتربة تلك المعادن
وتتحد بها ، وقد تستحيل الى كبريت أو نפט أو غيرهما حسب
اختلاف ترب البقاع ، فيكون من ذلك ضروب من الجواهر
المعدنية المختلفة الطبائع — قلنا أن في الجبال جبالا وفي
الارض ارضين يحوقها كهوف ومغارات وأهوية حارة
ملتهبة ، فهذه الكهوف قد تجرى اليها مياه كبريتية أو
نفطية دهنية فتكون مادة لها دائما — فاذا اختنقت هذه
المواد بفعل الحرارة ذهبت صاعدة تطلب الخلاص —
فقد تكون هذه المواد دخانا صرفا كما هي حال هذين
البركانين في هاتين الجزيرتين ، وهذا الدخان يخرج بقوة
شديدة حتى لقد يقذف فيه الحجر الكبير فترده ردا قويا
وقد تكون هذه المواد احجارا محترقة ومواد اخرى كبريتية
ونفطية نارية تخرج كالسيل العرم فلا تمر بشيء الا احرقته
كما يكون من جبل النار الذي في الجزيرة نفسها ، وترى
هذا الجبل يرمى فيما يرمى بحجر كبير كاعدال القطن يقطع

بعضه في البر فيصير حجراً ابيض خفيفاً يطفو على وجه الماء خلفته ، والذي يقع في البحر يصير حجراً اسود مثقبات تحك به الارجل في الحمامات ، وهو كذلك خلفته يطفو على الماء ، ومن غريب الامر انه اذا وقع هذا الحجر على حجر احترق ذلك الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يصير ذلك الحجر غباراً كالسكر ، أما الحشيش وسائر ضروب النباتات فلا تحترق ، ولا يحترق الا الحجارة والحيوان ، فكانها نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة (١)

هذا ويسمى الالهالى عندنا أحد البركانين الموجودين في هاتين الجزيرتين « بركانا » ويسمون الآخر « استنبري » ومعنى بركان واستنبري فيما علمت الرعد والبرق (٢)

وقد لاحظت أن معادن الكبريت الاصفر لا توجد في الاعم الاغلب الا بجانب البراكين ، ففي هاتين الجزيرتين معدن كبريت لا يوجد مثله بموضع آخر ، رأيت ورأيت القطاع الذين يقطعون به - رأيتهم وقد عمر ط

(١) تحفة الالباب (٢) تقويم البلدان لابي الفداء

شعورهم وانصلت أظفارهم من حره وييسه ، وهم يذكرون أنهم يجدون في بعض الايام سائلا متميما فيتخذون له في الارض مواضع يجتمع فيها ثم يجدون في غير ذلك الاوان قد تحجر فيقطعون بالمعاول ، وكذلك ترى بجانب جبل النار الذي في الجزيرة نفسها آبار زيت النفط الذي لا يخرج منها الا في وقت معلوم من السنة - في شهر شباط وشهرين بعده - فتراهم في ذلك الوقت ينزلون في هذه الآبار على درك ويخمر الرجل الذي ينزل فيه رأسه ويسد مسام أنفه (منخريه) وان تنفس في أسفل البئر هلك الساعة - ، وما يستخرجونه من هذا الزيت يضعونه في اواني فيعلو الدهن منه وهو المستعمل ، وذلك كله مما يدل على طبيعة هذه الارض الغريبة الشأن ، والله في خلقه شؤون : سبحانه مالك الملك لا اله غيره .



مدينة بلرم

حضرة جزيرة صقلية

ولقائي أميرها أبا الحسين أحمد

كان وصوانا الى مدينة بلرم بعد انفصالنا من مدينة
مسينى بيومين كاملين ، وكان تعريجنا عليها دون قصد منا
اليه ، إذ كانت الريح غير موافقة في ذلك اليوم وهو يوم
الاحد الخامس عشر من شهر جونيو الرومي سنة ست
 وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح ، فاضطررنا أن
نقيم في هذه المدينة ريث أن تأتي الريح الموافقة ، ولقد
اهتبت هذه الفرصة فجلت في المدينة جولة وقفت فيها
على أشياء كان لا بد من اجتلائها ، وقد أسعدني الحظ
فقابلت أميرها من قبل المعز لدين الله الفاطمي أبا الحسين
أحمد بن أبي الحسن الكلبي وجرى بيني وبينه حديث
سأذكره لك بعد أن أتى على وصف هذه المدينة
ان شاء الله

مدينة بلرم هي حضرة جزيرة صقلية ، ففيها يقيم الوالى
الذى يوليه الفاطمى وفيها قاضى القضاة وديوان الحسبة ،
ودار الصناعة ، وفي مينائها يربض اسطولها الاعظم ، ومنها
يغدو ويروح مختالا على ثبج هذا البحر فيغزو ما شاء أن
يغزو من جزائره وعُدوته الشمالية - « جنوب اوربا » -
وهي لذلك كله وبفضل ما أحدثه المسلمون فيها من ضروب
ال عمران تراها من أجمل المدن وأنخمها - فهي بهذه الجزيرة
ام الحضارة ، والجامعة بين الحسين غضارة ونضارة ،
فما شئت فيها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع
أخضر ، تطلع لك بمرأى فتان ، وتمخايل بين ساحات وبسائط
كلها بستان : فسيحة السكك والشوارع ، تروق الابصار
بحسن منظرها البارع ، مبانيمها كلها بمنحوت الحجر المعروف
بالـ كذان ^(١) يشقها نهر ينساب فيها مثل الحية المذعور ،
أو السيف المشهور ، ويطرد في جنباتها أربع عيون زاخرة
عليها ارحاء كثيرة لا تحصى

بلد اعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشة الطاوس
وكانما الانهار في ساحاتها
خمر وكان ساحات الديار كؤوس^(١)

وهي تنقسم الى خمسة اقسام محدودة متباينة متجاورة
فقسم هو المدينة الكبرى التي تسمى بلرم ، ويسكنها
التجار ، وفيها المسجد الجامع الذي كان في القديم بيعة المروم
وهو الآن لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المبتكرة من
ضروب التصاوير وصنوف التزاويق^(٢) التي ابدعها المسلمون
فيه يعد من أعجب عجائب الدنيا^(٣) النامة عن حذق العرب
ومهارتهم في الصناعة الى الحد الذي لا وراءه ، وفي هذه
المدينة وفي اقسامها الاخرى نيف وثلاثمائة مسجد^(٤) ولم
أر مثل هذا العدد في بلد من البلدان ، ومن غريب الامر

(١) ابن الجوزي الشاعر الاندلسي (٢) الادريسي (٣) ذكر
هذا الجامع بما لا يخرج عما ذكرناه نحن كل من الادريسي
وابن حوقل (٤) ابن حوقل

انى كنت واقفا فى جوار دار أحد الفقهاء الاعيان فى هذه
المدينة وهو ابو محمد القفصى الوثائقى فبصرت قريباً من
مسجده على مقدار رمية سهم عشرة مساجد ، ومنها
المسجد تجاه المسجد لا يفصلها الا الطريق ، وأغرب من
ذلك أن من بين هذه العشرة المساجد ، والى نحو عشرين
خطوة من مسجد الفقيه القفصى المذكور مسجداً لا يذنه
ابتذاه ليتفقه فيه ، منعزلاً عن أبيه ^(١) ، وهذا عمر ك الله
مما يستشف الناظر من ورائه ابهة القوم واعتزازهم بسلطانهم
وانهم سادة هذه البلاد ، ولا جرم كان ذلك باعثاً لهم على
التنافس فى المفاخر والمكارم وسائر خلال الخير والكمال ،
وهو معنى من المعانى التى يستتبعها الملك والغلب والسلطان ^(٢)
أما القسم الثانى من أقسام بلرم فهو المعروف بالخالصة ،
وهو مقام الوالى وأتباعه ، وليس فيه اسواق ولا فنادق ،
وبه حمامان ، وفيه مسجد جامع مقتصر صغير ، وفيه حبس
الوالى ودار صناعة البحر والديوان . - والاقسام الاخرى

(١) ابن حوقل (٢) ابن خلدون فى مقدمته

الثلاثة ، فقسم يعرف بحارة الصقالبة ، وهذا القسم أعمر
من القسمين السابقين وأجل ومرسى البحر به ، وآخر
يسمى حارة المسجد وثالث يسميه القوم الحارة الجديدة ،
وأكثر الاسواق في هذا القسم كسوق الزيانين والصيارفة
والصيادلة والخرازين والصياقلة والنحاسين وسوق القمح
وسائر الصنائع على اختلافهم ، وفي هذه الحارة الجديدة
نحو من خمسين ومائة حانوت لبيع اللحم . وهذا مما يدل على
استبحار العمران في هذه الجزيرة ورخاء أهلها وكثرة
عديدهم . فسبحان المعز لمن يشاء

ولقد حدثني الفقيه الوثائقي حديثاً بجمل بنا ان نجلوه
لك الآن قال^(١) : ان المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة ،

(١) هذا الحديث من اوله الى آخره انما هو من تافيقنا لفظاً
ومعنى وكل ما هنا لك انا اعتمدنا في عصارته التاريخية على ما ترجمه
لنا احد اصدقائنا من كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون
خاصا بصقلية

وبلاد فلورية^(١) ، من بر الارض الكبيرة^(٢) واستوثق
لهم الأمر ، ومدت لهم امم الفرنجة يد الاذعان اخذوا
حسب عادتهم في كل بلاد يفتحونها بنية الاقامة فيها ،
واصلاح حال اهلها ، في ان يستنقذوا هذه البلاد من تلك
الجماعة المنتنة التي كانت مرتطمة فيها ايام حكم الروم ، فنشروا
في البلاد الوية العدل ، وعمدوا الى الزراعة فانتعشت بعد
صرعتها ، والى التجارة فهبت من رقدتها ، والى الصناعة
فانتاشوها من وهدتها ، ووثب الاهلون وثبة كانوا أنشطوا
من عقال ، فكثرت الاموال ، واغدودقت الخيرات الى
الحد الاقصى ، وافتن الناس افتنائهم في ضروب الترف
والنعيم واتساع العيش والتأنق فيه والتلون بأزهى الوانه . -
قال الفقيه : أما عدل المسلمين فانك لتجد نصارى هذه
البلاد لا يكاد المسلمون يمتازون عنهم بشيء : فالجميع
يرتمون متجبحين متحابين ، وكل متمتع بعيشته وعقيدته

(١) كلابرية « جنوب ايطاليه » (٢) اوروبا

وطقوسه فللنصارى كنائسهم كما ان المسلمين مساجدهم ،
واذا جاء عيد من الاعياد رأيت أعلام النصارى بجانب
أعلام المسلمين : أما علم النصارى فقد صور فيه صليب
مذهب في بهرة ساحة حمراء ، وعلم المسلمين قد رسم فيه
حصن اسود في ساحة خضراء ^(١) أما نساؤهم فربما رأيتهن
اليوم «الاحد» وهن ذاهبات الى الكنائس ، وقد تشبهن
بنساء المسلمين ، لان المغلوب كما تعلم مولع دائماً بتقليد
الغالب ، فانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة
ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ،
وتزين بكل ما يتزين به المسلمات ^(٢)

ان من يدخل الكنيسة يوما

يلق فيها جاذرا وظباء

وايس يطلب من النصارى سوى تلك الاتاة التافهة
المفروضة عليهم لقاء قومة السلطان على الرعية ، وهي ديناران

(١) حضارة العرب للدكتور جوتستاف لوبون

(٢) ابن جبير

يؤديها عنهم ، ودينار واحد يؤديه صناعهم وارباب
الحرف منهم ، أما النساء والاطفال فليس شيء بمفروض
عليهم ^(١) وهم يقرون بأنهم لم يذوقوا طعم هذا العيش
الاخضر الا على عهد المسلمين وأما الزراعة فقد شققنا
الانهار، واحتفرنا الجداول ، واقمنا عليها القناطر الحاجزة ^(٢)
واحيينا الارض الغامرة ، فأخصبت ودرت وربت ،
واخذت زخرفها وازيئت ، وجلبنا الى هنا كثيراً من
الاشجار والازهار وضروب النبات التي لم يكن ليعرفها
اهل البلاد الاصليون مثل القطر والقصب وشجر
الزيتون ^(٣) والبردي ^(٤) الذي لا يوجد الا في مصر وكثير
غير ذلك

وأما الصناعة فقد خطت بفضل المسلمين خطوات

(١) جوستاف لوبون (٢) قال الدكتور لوبون ان
العرب هم الذين حفروا الترع التي لا تزال باقية الى الان وهم
الذين اخترعوا الاهوسة ذوات الحواجز وكانت قبلهم مجهولة
(٣) جوستاف لوبون (٤) ابن حوقل

بعيدة المدى فاستثرتنا دقائق الارض ومعادنها من الفضة والنحاس والرخام والحديد ، ومهر المسلمون في ضروب الصناعات الشتى الانوان ، فحذفوا صنع الحرير والصباغة وما اليها ^(١) وكذلك تراهم قد برعوا وازدوا وتفوقوا في سائر العلوم الصناعية بلذلة الادبية والدينية والفلسفية حتى أن الفرنجة لانبيهارهم من براعة المسلمين فيما بلغى يقرفونهم بالسحر ^(٢) وما هو عمرك الله بالسحر، ان هو الا تسنهمهم

(١) قال الدكتور لوبون : ان العرب هم الذين أدخلوا في البلاد صناعة الحرير وان في نود مبرج رداء من الحرير مما كان يلبسه امراء صقلية عليه كتابة بحروف كوفية ، قال : وكل شيء بيعت على الاعتقاد ان صناعة صباغة الاقمشة انما انتشرت في اوروبا من صقلية (٢) اورد الدكتور لوبون هذه الحكاية بعد ان ذكر ان الرهبان كانوا يفسبون مخترعات العرب الى السحر قال . في احدى حملات النور ماندين الذين طرأوا على صقلية في اواخر ايام العرب في صقلية استكشف الكونت روبرت ويسكرد تمثالا قائما على عمود رخام متوجاً بدائرة من البرنز محفور عليها هذه الكلمات « سيكون لي في اول مايو عند طلوع الشمس تاج

ذروة الكمال ، وهوى هذه الامم الحمراء الى الخفيض
الاوهد

والنجم تستصغر الابصار صورته

والذنب لا طرف لا للنجم في الصغر

وأما التجارة فلملك قد شاهدت كثرة السلع والبضائع
المجلوبة الى هذه البلاد ، والحوانيت والمتاجر المتكاثرة في
شوارع البلد ، وكذلك عساك قد أبصرت الحركة المباركة في
مينائنا وعمال المكوس فيها مما تتحقق منه أن الجزيرة قد

ذهبي » فلم يدرك احد مغزى هذه الكلمات غير ان عربيا من
صقليه كان اسيراً لدى الكونت افهم روبرت انه يدرك معناها
الخفي وانه اذا وعده اطلاق سراحه فسرّها له فلما وعده روبرت
نصح له الاعرابي ان يحفر في أول مايو عند طلوع الشمس في
المكان الذي ينتهي اليه ظل التمثال ففعل الكونت ذلك فوجد
كنزاً هائلاً لا تقدر قيمته .

شأت شأواً بعيداً في التجارة بفضل نشاط المسلمين واقدامهم
وبعد همهم ، وكل ذلك بما أثر فيهم روح هذا الدين القويم
وأدابه الالهية .



لقائي الامير ابا الحسين احمد

ابن أبي الحسن الكلبي

والي جزيرة صقلية

اني لجالس مع الفقيه الوثائقي في مسجده بعد أن تغدينا
وصلينا صلاة الظهر ثم اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا اذ
دخل علينا المسجد خادم من قبل الامير ، فدعّر الفقيه عند
ما اخذت عينه هذا الخادم ، فدعّرت لذعره ، ثم قال الخادم
أن الامير يدعوك الساعة اليه ومعك ضيفك المصري ،
فقلت للفقيه أتم ما يخاف منه فأفرخ روعي ^(١) وقال الآن
لا أظن تمت شيئاً أكثر من رغبة الامير في أن يستطلع
منك طلع مصر والمصريين ، واميرنا حفظه الله من خواص
اهل الأدب وعلّيتهم ، وانه لذو حظ عظيم من رجاحة
العقل وسجاجة الخلق يحب الادباء ويقربهم اليه ويتحدث
معه كما يتحدث النظير مع النظير ، على أن اليوم في صقلية
كأنه عيد من أعياد الاهلين ، اذ كان قد ورد من أيام علي

الامير كتاب من أمير المؤمنين المعز لدين الله يأمر الامير فيه باحصاء اطفال الجزيرة وأن يختتمهم ويكسوهم ويحبوهم بالعطايا في اليوم الذي يختتم فيه ولد أمير المؤمنين ، فكتب الامير خمسة عشر الف طفل ثم اختتم ولده واخوته وقد أمر اليوم باختتان سائر اطفال الجزيرة وخلع عليهم وفرق فيهم مائة الف درهم وخمسين حملا من الصلات وردت عليه من امير المؤمنين ^(١) فكيف نتوقع شراً من الامير في مثل هذا اليوم المبارك

وقد كان مع الخادم بغلتان فارهتان من مطايا الامير وقد جملتا بالديباج وحليتهما بالفضة ، فركبت أنا والفقير وسرنا حتى وصلنا الى دور الامارة فوقعت عيني على شيء لم تقع على مثله من قبل

قصور كالسكواكب لامعات

يكدن بضئ للساوي الظلاما

وقبة ملك كأن النجو م تفضي اليها باسرارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بانوارها

كأن جن سليمان الذين ولو ابداعها فأدقوا في مغانيها
ولما أن وصلنا الى دور الامارة أشار علينا الخادم بالتزول
وأسلمنا الى الحجاب فساروا بنا في ممر مفروش بالحصباء
تتخللها الفسيفساء ، ثم سلكوا بنا حداثق فيحاء ، مترامية
الأنحاء ، قد اغلولبت فيها الاشجار ، وتمقلت باغصانها
الاطيار ، والنسربت فيها الجداول والأنهار ، واعشوشبت
فيها النجوم (١) والازهار

والجو من أرج الهواء كأنه ثوب يعنبر تارة ويمسك
وما زلنا ^{اليه} انتهينا إلى قصر الأمير ، فرجع الحجاب
بعد أن اسامونا إلى الحجاب المقربين ، فرقى بنا هؤلاء سلما
ينتهى بالراقى عليه إلى بهو عظيم يلا صدر الناظر إليه مهابة
وجلالا ، فاجتزناه واجتزنا بعده غرفا ومقاصير عدة حتى

(١) كل ما نجم من نبات الارض

انتهينا إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلسا لم أرها هو أحق
منه بقول من قال :

قصر لو انك قد كحات بنوره
اعمى لعماد إلى المقام بصيرا
أبصرته فرأيت أبداع منظر
ثم انثنت بناظري محسورا
فظننت انى حالم فى جنة
لما رأيت الملك فيه كبيرا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة
فيه فنكبو عن مداه قصورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما
جملت لها زهر النجوم نفورا
وإذا الولا ئد فتحت أبوابه
جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم
فغرت بها أفواها تكبيرا

فكأنما أبدت لهنصر عندها
من لم يكن بدخوله مأمورا
ومصفتح الأبواب تبرأ نظروا
بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت إلى غرائب سقفه
أبصرت دوضاً في السماء نصيرا
وضعت به صناعاتها أقلامها
فأرتك كل طريدة تصورا
وكأنما للشمس فيه ليقة

مشقوا بها التزييق والتشجير^(١)

فلما أقبلنا على المجلس غلبني البهر من جلالة الأمير ،
فسلم الفقيه الوثائق ، ثم سلمت بعده بالامارة فردّ على
السلام باشا في وجهي واذن لنا بالجلوس ، وقد كان قاضي
القضاة جالسا عن يسار الأمير ، ثم أخذ الأمير في أحاديث

(١) الابيات لابن حمديس وقد تمثلنا بها على الرغم من
تأخر زمنه عن زمن الرحلة وبحسب القارىء تنبيه الى ذلك

شتى يقصد بها لعله أن يؤنسني وينفى الوحشة عن ساحتي
وبعد أن آنس مني الانس به قال : أيّ منتوى ينتوى
أخونا المصري انت شاء الله ، فقلت انى أنتوى يا مولاي
القطر الاندلسي ، فقال : ومتى زایل مصر ، فقلت منذ
نيف وعشرين يوما ، فقال وكيف فارقتها ؟ فقلت على أحسن
حال يا مولاي الأمير . فقال : وكيف حال الأمير انوجور
وحال كافور معه ^(١) فقد اتصل بنا أن كافورا قد استبد به
وغلبه على أمره . فقلت : اذا كان كافور يا مولاي قد
استبد بالامير انوجور فان المصريين قد استبدوا بكافور ،
فقد أصبح كافور للمصريين لا لنفسه ولا للأمير ،

(١) كان يلى مصر في ذلك الوقت من قبل العباسيين ابو
القاسم انوجور الاخشيدي ولصغر سنه كان ابوالمسك كافور « وهو
الذي اشتراه محمد بن طغج الاخشيدي من رجل مصري يسمى محمود
بن وهب بن عباس بثمانية عشر دينارا وجعله أتابك ولديه »
فكان كافور قويا على انوجور مستعبدا طبعها بالامر دونه وكانت
الدولة الفاطمية المستولية على طرابلس وتونس والجزائر ومراكش
في ذلك العهد طامعة في أخذ مصر وفعلا فتحتها بعد ذلك ببضع
سنوات بعد موت كافور

فسيرته فينا عادلة رشيدة ، وحاله معنا جميلة سديدة (١)
لأنه يعلم أن الملوك إنما هم خدام الرعية فكيف يظلمونها
ويستجيزون كيدها ، ولم يستعبدون الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحراراً ؟ على أن كافور ليس هو وحده الذي ينهض
بأعباء الملك ، وإنما يشد أزره ، ويشاركه أمره ، وزيرنا
الأعظم أبو الفضل جعفر بن الفرات وغيره من رجال
الدواة . فقال الأمير : ولكن أليس اليق بكم واسمى وانبأ
أن يلى أمركم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه أمير المؤمنين
المعزدين الله ، وأنت تعلم أيها الأخ أن العباسيين قد ضعف
أمرهم ، وتضعفت حالهم ، والثلاث عليهم ملكهم ، وانتزى
الاعاجم والأتراك على البلاد فاقتطعوا الممالك منهم وتفردوا
بالأمر دونهم (٢) أما عبد الرحمن الناصر صاحب

(١) كان كافور كما يقول ابن خلدون من أعظم الملوك حودا
كثير الخشية لله والخوف منه وكان يجلس للمظالم بنفسه في
كل سبت وكان يرغب في أهل الخير ويعطيهم وقد امتدحه
المتنبي بقصائد عدة

(٢) كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المطيع لله وفي

الأندلس فقد اكتفى بما في يده من الممالك المترامية
الأطراف ، فلم يبق الا أن تستظلوا بظل خلفائنا
الفاطميين حتى يحموكم ويردوا عنكم طمع الطامعين . وهنا
طار طائر الغضب إلى رأسى فلم البث أن اندفعت قائلا :
ان مولاي الأمير حفظه الله يعلم أنه اذا أعدّ من أظلم الظلم
وانكر النكر أن ينقض جرح من الجوارح على وكر طائر
آمن في سربه فيزعجه في سكنه ، وينقص عليه عيشته ،
ويستلبه سراحه وحرية ، ويضطره اما الى الظعن الى جو
غير جوه ، أو الاقامة بجواره بين مخليه وظفره ، فان من
الظلم الذى لا ظلم وراءه أن تعدوامة على اخرى وحجتها في

ايامه كانت فارس في يد معز الدولة بن بويه والموصل وديار بكر
ومُصَرَّ وريبعة في يد سيف الدولة بن حمدان ومصر والشام في
يد الاخشيذ والبصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي
وكرمان في يد ابي على بن الياس واصفهان والجليل يتنازعها آل
بويه ومرداويج وما وراء النهر في يد بنى سامان وطبرستان
وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في يد القرامطة وذلك
هذا الاندلس والمغرب

ذلك أن تحميتها من طمع الطامعين . اليس من السفسطة ،
وأقعد ما يقال في باب المغالطة ، أن يعدو قوم على قوم بحجة
أن هذا العدوان إنما هو وقاء لهم من عدوان آخرين ؛ ولم
لا تبدأ هذه الأمة بنفسها فتريح غيرها من عدائها ، ان
مولاي الأمير يعلم أن حب الوطن من الايمان ويقول
رسول الله صلوات الله عليه : حب الوطن من طيب المولد :
ويقول : لولا حب الوطن لخربت بلاد السوء : علي أن فطرة
الانسان معجونة بحب وطنه ، ولذلك يقول بقراط : يداوى
كل عليل بعقاقير أرضه ، ويقول جالينوس : يتروح العليل
بنسيم بلده كما تتروح الارض الجذبة ببلل القطر ، وروى
أنه لما أسر سابور بيلد الروم قالت له بنت الملك - وكان قد
مرض وعشقه - ما تشتهي قال شربة من ماء دجلة وشمة
من تراب اصطخر فحملا اليه فبرأ وأبل من مرضه . والكريم
يامولاي يحن الى جنابه ، كما يحن الاسد الى غابه ، وكفى دلالة
على محبة الوطن قول الله جل شأنه : ولو أنا كتبنا عليهم أن
اقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الآية ومن

ثم كان الأُم بيت قالته العرب قول القائل :
تلقى بكل بلاد إن حلت بها
ناساً بناس وإخوانا باخوان
فلا جرم أن يتغلغل حب مصر والمصريين في السواد
من حبة القلب منى ، حتى لكانى المعنى بقول من يقول :
كأن فؤادى من تذكره الحمى
وأهل الحمى يهفو به ريش طائر
وكيف لا أحب بلدا ولدت فيه ، وأرضه هى أول
أرض مس جلدى ترايبها ، وقد طعمت غذاءها وشربت ماءها
النمير ، ماء نيلها المبارك الذى يعذر الاقدمون عن زعمهم
ان الجنة منبعه انسرب منها الى هذه الخضراء
بلد صحبت به الشبيبة والصبي
وابست فيه العيش وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيت
وعليه أفنية الشباب تميد

ألا يا حبيذا وطني وأهلي
وصحي حين يُدّ كر الصحاب
وما غسل بيارد ماء مزن
على ظمأ لشاربه يشاب
بأشهى من لفائكم الينا
فكيف لنا به ومتى الأياب

ومولاي الامير يعلم عالماً ليس بالظن أن الحكام الغرباء
عن البلاد مهما كانت منزلاتهم من العدل لتأبى عليهم سنة
الله في خلقه الا أن يضيئوا الرعية التي لا تمت اليهم برحم
أو أصره موطن ، أما رهط المرء فرحم الله من قال
لعمري لرهط المرء خير بقية

عليه وان عالوا به كل مركب
اذا كنت في قومٍ عداء^(١) لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب
لذلك كله اقول وأنا آمن الامير

ولى وطن آليت ان لا ابيعه

وأن لا ادى غيرى له الدهر مالكا^(١)

وهنا اطرق الامير ثم انبعث قاضى القضاة قائلاً :
أظن اخانا المصرى لا يفيب عنه أن الارض قد ملئت اليوم
جوراً وظلماً وعدواناً ، وذاع الفساد ، فى البلاد ، وعم الشر
وطم ، فلا بد من امام عادل يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما
ملئت جوراً وظلماً ، ولا يكون هذا الامام الا من ولد

(١) البيت من أبيات لابن الرومي يقول فيها بعد هذا

البيت

عهدت به شرح الشباب ونعمة

كنعمة قوم اصبحوا فى ظلالكا

فقد الفته النفس حني كأنه

لها جسد ان بان غودر هالكا

وحبيب اوطان الرجال اليهم

ما رب قضاها الشباب هنالكا

اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم

عهد الصبا فيها فحنوا لذلك

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وها هو ذا قد صدق رسول الله وعده وجاء اليها امام المسلمين العادل الرحيم البار برعيته ، الداعي الى الحق والقائم بنصرته ، مولانا وابن مولانا المعز لدين الله بن مولانا المنصور بن مولانا القائم بن مولانا عبید الله المهدي ادام الله تأييده ، هذا الى أنه لا يوجد اليوم بين ملوك المسلمين من هو اعز من مولانا نفراً ، واكثر مالا ووفراً ، واقوى سلاحاً وشوكة ، وأبعد في سياسة الامم تجربة وحنكة ، فكان لذلك من الواجب الحتم على كل مسلم أن يعمل على نشر دعوته ، ويستظل برعايته . فما كاد قاضي القضاة يتم كلامه حتى ابتدرت فقلت ان المصريين لا ينكرون على امير المؤمنين المعز لدين الله شيئاً مما قلت بيد أن مولانا حفظه الله بعرف مما عرف من طبائع البشر ان الامة التي تغلب على امرها ، ويحقق عليها لواء غيرها ، وتصبح بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليها ، يقصر املها ، ويبلى رجاؤها ، وتضوى ارواحها واحتمال الافى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام

وذلك لما خضد الغلب عليها من شوكتها، وكسر من
حميتها، فيفضي ذلك على كرا الأدهار، وتعاقب الليل والنهار،
الى أن ترأم الذل^(١) والاستخذاء، وتشتمل باردية الكسل
والوناء، فيكون من نتاج ذلك ضعف النشاط في القوى
الحيوية وهلم حتى يتناقص عمرانهم وتلاشى مكاسبهم
ويعجزوا عن المداومة عن أنفسهم. فيصبحوا مغلبين لكل
متغلب، طعمة لكل آكل نهبا مقسما لكل ناهب، وثبت
شيء آخر وهو أن الانسان يا مولاي رئيس بطبعه بمقتضى
الاستخلاف الذى خلق له، والرئيس اذا غلب على رأسته،
وكبح عن غاية عزه تكامل حتى عن شبع بطنه ورى كبده
وهذا سر ركب في غرائز البشر كما انه وجد مثله في الحيوانات
المفترسة، فانها لا تسافد كما يقولون اذا كانت فى مملكة
الادميين

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

وهنا كأن الامير اراد أن يُطوى بساط هذا الموضوع
فانتقل فجأة الى معنى آخر فقال : هل يحفظ اخونا المصري
شيئا مما مدح به المتنبي الشاعر كافورا ؟ وهل لا يزال هذا
الشاعر مقبلا في مصر ؟ فقلت : نعم يا مولاي الامير - لقد
فارقت مصر ولما نزل المتنبي في خدمة مولانا الاستاذ أبي
المسك كافور ، ولقد امتدحه بأحسن المدح ، وحق له أن
يمتدحه ، اذ اللهها يا مولاي تفتح اللهها ^(١) كما يقولون ، فما
يعلق بالذاكرة مما انشدني ، قوله فيه ، بعد أن وصف
الخيول التي سرت به اليه

قواصد كافور توارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زمانه

وخلت بياضاً خافها وماقيا

(١) اللهما الاولى بضم اللام جمع لهوة وهي العطية واللهما
الثانية بفتح اللام جمع لهاة وهي هناة حمراء في الحنك معلقة على
عكدة اللسان

وقوله من قصيدة
وأخلاق كافورا إذا شئت مدحه
وان لم أشأت على عليّ فأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه
وعم كافورا فما يتغرب
وفي هذه القصيدة يقول
وما الخيل إلا كالصديق قليلة
وإن كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها
واعضائها فالحسن عنك مغيب
لما لله ذى الدنيا منا خالرا كب
فكل بعيد الهم فيها معذب
وله فيه قصيدة مظهرها
أود من الأيام ما لا توده
واشكو اليها بيننا وهي جنده
يقول فيها من حكمته البالغة

وأَتعب خلق الله من زاده
وقصر عما تشتهى النفس وُجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله
فينحل مجدك بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجد كفه
إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله
ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
إلى أن يقول
وما رغبتى فى عسجد أستفيدة
ولكنها فى مفخر أستجده
وقوله فيه من أخرى مطلها
من الجآذر فى زى الأعاريب
حمر الحلى والمطايا والجلابيب

كأن كل سؤال في مسامعه
قيص يوسف في أجفان يعقوب
إذا غزته أعاديه بمسألة
فقد غزته بجيش غير مغلوب
ويعجبي من نسيب هذه القصيدة قوله
كم زورة لك في الأعراب خافية
أدهى - وقد رقدوا - من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنتنى وياض الصبح يغرى بى
إلى أن يقول
ما أوجه الحضر المستحسنات به
كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حسن غير مجلوب
فقال الأمير : بيد أنه بلغنى اليوم فقط أن المتنبي زابل
مصر بأخرة وهجا كافورا هجاء قاسيا مرا بأبيات يقول فيها

لقد كنت أحسب قبل الخصى م
أن الرؤوس مقر النهى
فلما نظرت إلى عقله
رأيتُ النهى كلها فى الخصى
وماذا بمصر من المضحكات
ولكن ضحك كالبكي
بها نبطي من اهل السواد
يدرس أنساب أهل العلا
وأُسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى
وشعرٍ مدحت به الكركدنم
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاله
ولكنه كان هجو الوردى
إلى أن يقول

ومن جهات نفسه قدره

رأى غيره منه ما لا يرى

فقلت إذا كان قد هجاه فقد قال الله جل شأنه والشعراء
يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون
ما لا يفعلون ، وصدق رسول الله صلوات الله عليه ، شر
الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه ، ورحم الله من يقول
لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بشمن ويهجوكم مجاناً ، على أن
المتنبى رجل ذو طماعية وطماح ، وكان مولاي الأستاذ أبو المسك
وعده بولاية بعض أعماله فلم له رأى منه بعد ذلك ما لم يستطع
معه الوفاء بما وعد^(١) فقال فيه المتنبى ما قال — قال الأمير
واسكن للمتنبى في سيف الدولة بن حمدان وفي غيره ما هو
أبرع مما مدح به كافورا ، ويعجبني من قصيدة له في ابن
حمدان قوله

(١) روي أن كافورا كان قد وعد المتنبى بولاية بعض
أعماله فلما رأى تعاليه في شعره ومحموه بنفسه خافه وعوتب فيه
فقال يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد أما يدعى الملعون كذا مع كافور

إذا ما سرت في آثار قوم
تخاذلت الجماجم والرقاب (١)
إلى أن يقول

وكيف يتم بأسك في أناس
تصيدهم فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم
فان الرفق بالجاني عتاب
وأنت حياتهم غضبت عليهم
وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أياديك البوادي
ولكن ربما خفي الصواب

(١) أوضح هذا المعنى أبو بكر الخوارزمي فذكره في
ثلاثة أبيات قال

وكننت إذا نهدت لغزو قوم وأوجبت السياسة أن يبيدوا
تبرأت الحياة اليك منهم وجاء اليك يعتذر الحديد
وطلقت الجماجم كل قحف وانكر صحبة العنق الوريد

وكم ذنب مولده دلال
وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم
وحل بغير جارمه العذاب
وقوله فيه من قصيدة
يقود اليه طاعة الناس فضله
ولو لم يقُدْها نائل وعقاب
أيا أسدا في جسمه روح ضيغم
وكم أسد أرواحهن كلاب
وفي هذه القصيدة يقول
وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه
ولو ان ما في الوجه منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده
وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغير مني الدهر ما شاء غيرها
وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

الى أن يقول

وللسر منى موضع لا يناله

نديم ولا يفضى اليه شراب

ولله هو إذ يقول فى كلمة له

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها

فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقا وقينة

فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضرب أعناق الملوك وأن ترى

لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك فى الدنيا دويا كأنما

تداول سمع المرء أنمله العشر

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص

على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله

مخافة فقر فالذى كفعل الفقر

ثم قال الأمير : وهل لا يرى أخونا المصري لأبي
القاسم ابن هانيء الاندلسي شاعر أمير المؤمنين المعز لدين
الله ما يستأهل به أن يُبَلِّغَ مع المتنبّي في قِرْن (١)؛ فقلت
انى أخشي يا مولاي أن أصرح برأبي . فقال قل وأنت
آمن . فقلت انى لا أشبهه يا مولاي الا برحى تطحن
قرونا (٢) وانى كلما أنشدت شعره فكأنى أسمع جمجمة
ولا أرى طحنا ، فاربد وجه الأمير غضباً ثم تحالم وقال :
وهل يقال مثل هذا فيمن يقول

يا بنت ذى السيف الطويل نجاده

اكذا يجوز الحكم فى ناديك

عينك أم مغناك موعدا وفى

وادی الكرى ألقاك أم واديك

منعوك من سنة الكرى وسروافلو

عثروا بطيف طارق ظنوك

(١) يجاربه ويتساوى به (٢) هذه الكلمة لابى العلاء

قالها لما سمع شعرا بن هاني

ودعوك نشوى ماسقوك مدامة
لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكهيل فى جفونك حلية
تا الله ما با كفهم كحلوك
وجلوك لى اذ نحن غصنا بانه
حتى اذا احتفل الهوى حجبوك
ويقول من أبيات فى وصف الخيل

تكد تحس اختلاج الظن	ن بين الضلوع وبين الحشى
ومن رفقها أنها لا تحس	ومن عدوها أنها لا تري
وتحسب اطراف آذانها	يراعا برين لها بالمدى
جرين الى السبق فى حلبة	اذا ما جرى البرق فيها كبا
ديار الاعزة اكنها	مكرمة عن مشيد البنا

وهل لمولانا المعز الذى يقول مثل هذا الشعر

اطلع الحسن من جبينك شمسا

فوق ورد فى وجنتيك اطلا

وكان الجمال خاف على الورد

م جفافاً فمدّ بالشعر ظلاً

أن يقرب ابن هانيء اليه ويؤثره على غيره ويعتز به
ويفاخر لولا أن رآه من الشعر بحيث لا يكاد يتخلف عن
المتنبى؛ بلى وإذا كان في المشرق المتنبى ففي المغرب
ابن هانيء. وإذا كان فيه عبد الله بن المعتز فعندنا ابن مولانا
المعز — الامير ابو على تميم^(١) الذي يقول

(١) كان تميم بن المعز شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً ولم يل
المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه
المعز وقد توفي تميم بمصر سنة ٣٧٤ هـ وله شعر جيد يشبه شعر
ابن المعتز، فقد كان يحتذى مثاله ويقف في التشبيهات بجانبه ويفرغ
فيها على قالبه، ولا بأس بأن نورد هنا قطعاً مختارة من شعره اشادة
بذكره وتنويهها بقدره لانه يظهر أن كثيراً من ادباء هذا الجيل
لا يعرفونه حق معرفته فمن قوله

رب صفراء عللني بصفراء ووجنح الظلام مرخي الازار
بين ماء وروضة وكروم ورواب منيفة وصحار
تثني به الغصون عليها وتحجب القيان فيها القماري

وكأن الدجى غداثر شعر وكأن النجوم فيها مداري
وانجلى الغيم عن هلال تبدى في يد الافق مثل نصف سوار
ويقول

عتبت فأنثى عليها العتاب ودعا دمع مقلتيها السكاب
وسعت نحو خدها بيديها فالتقي الياسمين والعناب
رب مبدى تعنت جعل العتة ب رياء وهمه الاعتاب
فاسقينها مدامة تصبغ الكا س كما يصبغ الحدود والشباب
ما تري الليل كيف رق دجاء وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح في الافق باز والدجى بين مخلييه غراب
وكأن السماء لجة بحر وكأن النجوم فيها حباب
وكأن الجوزاء سيف صقيل وكأن الدجى عليها قراب
ويقول

وزنجية الآباء كرخية الجلب

عبيرية الانتقاس كرمية النسب

كفيت بزلنادها فتفجرت

بأحمر قان مثل قطر من الذهب

فلما شربناها صبونا كأننا

شربنا السرور المحض والاهو والطرب

ولم نأت شيئاً يسخط المجد فعله
سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
كأن كؤوس الشرب وهى دوائر
قطائع ماء جامد تحمل اللهب
يمد بها كفا خضيبا يديرها
وليس بشيء غيرها هو مختضب
فبتنا نسقي الشمس والليل راكد
ونقرب من بدر السماء وما قرب
وقد حجب النجم الهلال كأنه
ستارة شرب خلفها وجه من أحب
كأن الثريا تحت حلـكة لونها
مداهن بلور على الارض تضطرب

ويقول

كأن السحاب الفر اصبحن أ كؤوسا
لنا وكأن الراح فيها سنا البرق
الى أن رأيت النجم وهو مغرب
وأقبل رايات الصباح من الشرق
كأن سواد الليل وللصبح طالع
بقايا مجال الكحل في الأعين الزرق

ويقول مفتخراً

ألقى الكمي فلا أخاف لقاءه
وأكر في صدر الخريس معانفاً
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق
وكما يعمل الدهر من اعطائه
وكما يكر لمعشر بسعادة
فاذا رماك بشدة فاصبر لها
وسل الليالي عن تقاذع عزمي
تخبرك أنني لم ألقها
أصبحت لأشتاق الا للندي
واذا السيوف قطعن كل ضريبة
ويقول وهو مما يتغنى به

قالت وقد نالها قلبين أوجعه

والبين صعب على الاحباب موقعه

اجعل يدك علي قلبي فقد ضعفت

قواه عن حمل مافيه وأضلعه

واعطف علي المطايا ساعة فمسي

من شت ثمل الهوى بالبين يجمعه

وكما يمل الدهر من اعطائه فكذا ملالته من الحرمان
ويقول

وما أم خشف ظل يوما وليلة
بيلقة بيضاء ظمان صاديا
نهم فلا تدرى الى أين تنتهي
موله حبري نجوب الفياfia
أضر بها حر الهجير فلم تجد
أغلبها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفت له
فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منى يوم شدت حولهم
ونادى منادى الحى ان لاتلاقيا
ويقول

كأننى يوم ولت حسرة وأسى
غريق بحري الشاطى ويمنعه
وشعره كله مختار ظريف

أما والذي لا يملك الأمر غيره
ومن هو بالسر المكتوم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً
لأعلانها عندي أشد وآلم
وبى كل ما يبكى العيون أقله
وان كنت منه دائماً اتبسم
وبعد ذلك رأيت من الحزامة أن لا أطيل سبب
المحاجة ، فخرجت بالصمت عن لا ونعم ، ثم أمر لي الأمير
بعطاء سني ، ثم اذن لي في الانصراف من حضرته

جزائر مبرقة ومنورقة وبابنة

وقبل أن اختتم هذه الرسالة آتى لك على شيء مما
اعترضنا في طريقنا بعد أن انفصلنا من بلرم قاصدين إلى
المرية ، فمن ذلك أنا ونحن ازاء جزيرة كبيرة تسمى سردانية

ابصرنا أسطولا كبيرا قادمًا من ناحيتها ، وقد علمنا ان هذا
الاسطول هو اسطول المعز لدين الله ، غزا هذه الجزيرة ،
وبلاد جنوه من بر الارض الكبيرة ، وغنم وسبي
شيئا كثيرا يخطئه العد والاحصاء ، وما خام ^(١) في سائر
غزواته عن اللقاء ، على ما في ذلك من الغرر ، اذ ان وراء
هذه البلاد من امم افرنجية عديد الذر ، غير أن المعز يفعل
ذلك الفينة بعد الفينة ، لأنه يعلم أن الجهاد باب من أبواب
الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسما الخسف
وذيت بالصغار ^(٢) ، وإن أمة من الأمم تريد أن تكون
عزيزة مهيبة لا بد من أن تغزو غيرها قبل أن يغزوها
الاغيار ، ورضي الله عن علي بن أبي طالب إذ يقول في إحدى
خطبه : ما غزى قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا :

— وهذه سردانية جزيرة كبيرة في غرب هذا البحر —

(١) خام أى جنب ونكص (٢) أى ذلل يقال للبعير اذا
ذهله الرياضة بعير مديث أى مذل

الرومي غزاها المسلمون حوال سنة ٩٢ هجرية الموافقة سنة ٧١٠ ميلادية في عسكر موسى بن نصير وملكوها حينئذ من الدهر ثم تركوا حبلها على غاربها ثم هم الآن يغزونها من وقت لآخر ويغنمون ويسبون لما علمت .

وقد مررنا فيما مررنا به من جزر هذا البحر بجزائر ثلاث متجاورات تسمى ميورقة ومنورقة ويابسة (١) ، وهي جزائر عامرة مأهولة بالمسلمين يرجع أمرها إلى صاحب

(١) جاء في نفح الطيب : وجزيرة ميورقة مسافة يوم . بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة

بلد اعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاوس
فكأنما الانهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

وقال يخاطب ملكها في ذلك الوقت
وغمرت بالاحسان ارض ميورقة وبنيت مالم يبينه الاسكندر
والى هذه الجزائر ينتسب جماعة من العلماء والادباء ارجأنا
ذكرهم الى الرسالة الرابعة لانها موضع ذلك

الاندلس . وعليها وال من قبله . ومن هنا تعلم أن المسلمين
قد ملكوا ناصية هذا البحر الرومي بما فيه من الجزائر
الكبيرة والصغيرة علاوة على جزائر بحر الظالمات « المحيط
الأطلسي » كما أسلفنا لك . فسيحان المعز لمن يشاء ، وان
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

« تمت هذه الرسالة - وقد كتبت على متن البحر
وبيننا وبين المرية مسيرة يوم أو بعض يوم ، وذلك في شهر
جوانيه الرومي سنة ست وخمسين وتسعمائة الموافقة سنة
خمس وأربعين وثلثمائة هجرية »



الرسالة الثانية

من المريّة الى قرطبة

أظنك يا أخى لا تزال على ذكر من أن الرسالة الاولى من هذه الرسائل كتبت ونحن على متن البحر - قبل أن نصل الى صرافىء الاندلس ، اما هذه الرسالة الثانية فقد وضعناها بعد أن حططنا رحالنا في قرطبة حضرة هذه البلاد « عاصمتها » وقد خصصت هذه الرسالة بوصف كل ما مر بنا من حين اقترابنا من ميناء المريّة الى أن وصلنا الى قرطبة .

اما المريّة فهي إحدى مدن الاندلس الكبيرة الواقعة في شرقها ، وهى على ساحل البحر الرومى « البحر الايض المتوسط » وهى مرسى للسفن القادمة الى هذه البلاد

الاندلس - وفي مينائها يربض الجانب الأكبر من أسطول
الاندلس الأعظم والجانب الآخر يرسى في بجاية - وهي
واقعة بين جبلين ، فعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة
بالحصانة ، وعلى الآخر ربضها ، والسور محيط بها وبالربض ،
وفي غربها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ، ذو فنادق
وحمامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة
حصون مرتفعة واحجار أولية وكأنما غربت أرضها من
التراب ، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الانهار ، وطول واديها
أربعون ميلا في مثلها كلها بساتين بهجة وجنتات نضرة
وأنهار مطردة وطيور مفردة ، وتشتمل كورتها على معدن
الحديد والرخام - وبها النسيج طرز الحرير ثمانمائة نول ، وللحلل
النفيسة والديباج الفاخر الف نول ، وللثياب الجرجانية
والاصفهانية كذلك - ويصنع بها من صنوف آلات
الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف ، وقد علمت أنه
لا يوجد في بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية ،
ولا أعظم متاجر وذخائر - وبها من الحمامات والفنادق نحو

الألف ، وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناء وفيها كثير
من العلماء والادباء والفلاسفة (١)

وجملة القول أن المرية هذه كما رأيت تزخر بالحياة
زخراً ، وتنطق بنشاط المسلمين وجدهم ، وباقي غايات
عزهم لذلك ومجدهم

فلو ان السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء

ولما صافح مركبنا امواه المرية - وكان يسير بمحذائنا
مركب آخر علمنا أن فيه ابا علي القالى اللغوي وافد العراق
وسائر من قاموا معنا من الاسكندرية في مركب امير
المؤمنين عبد الرحمن الناصر - آنسنا من جانب الميناء -
ميناء المرية - اسطولا كبيراً قادماً علينا حتى اذا صار معنا اذني
ذي ظلم (٢) أخذ يحميننا من فيه بالرايات والاعلام - وكان
فيه الامير عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الاندلس
الاكبر - اذ امره مولاي الحكم بن امير المؤمنين

(١) أرجأنا ذكر من انجبت المرية وبجاية الى الرسالة الرابعة (٢) قريباً جداً

عبد الرحمن الناصر وولى عهده أن يتلقانا في وفد من وجوه
الانداسيين ويحيي معنا الى قرطبة، تكرمة من الامير لنا
ولأبي على القالى حفظه الله - فكان من رجال ذلك الوفد
شاعر الانداس يوسف بن هارون الرمادي وأبو بكر
بن القوطية سيد علماء اللغة في الاندلس وابن رفاعه الالبيري
احد ادباء البيرة وفنى نشأ يتوقد ذكاء ويتقطر أدبا والمعية
يسمى أبا بكر الزبيدي وكثير غير اوائك من علماء الاندلس
واعيانها وقوادها - وهذه (عمر لك الله) اية محسنة على شدة
عناية الامير بالعلم واهله - ولا بدع فقد وقفنا من ذلك على
الشيء الكثير الذي سما بهذا الامير في اعياننا . فمن ذلك فيما
تحققناه انه يبعث الحين بعد الحين فى شراء الكتب الى
الاقطار ، رجالا من التجار ، ويرسل اليهم الاموال لابتياعها
حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه فى ربوعها ، وقد
بعث فى كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهاني ، وأرسل اليه
فيه الف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة من
قبل أن يخرج به الى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي ابي بكر

الأبهرى في شرحه لمختصر بن الحكم ، فهكذا هكذا تكون
الملوك والأمراء ، وبمثل هذا يذعنش العلم والعلماء .

°°°

ولما أرسى مركبنا والمركب الذى يقل أبا علي القالى على
ميناء المرية قدم لنا ابن رماحس جميع رجال الوفد الاندلسى
وعرفنا بهم ثم امتطينا المطايا الفارهة وذهبنا الى دار
ابن رماحس الكائنة في قصبة هذه المدينة

ولما استقر بنا النوى وألقينا عصا التسيار ، وانتظم
شملنا في تلك الدار ، أخذ الرمادى الشاعر ينشدنا ابياتاله
في اسماعيل بن عيذون القالى يمتدحه بها ،^(١) علق بالذاكرة
منها هذه الايات

من حاكم بينى وبين عذولى

الشجو شجوى والمويل عويل

فى أى جراحة اصون معذبى^(١)

سامت من التعذيب والتنكيل

(١) مدح الرمادى ابا علي القالى حقيقة بهذه الايات (٢) من
هنوات الشعراء المستظرفة ما روي ان المتنبي لما جمع هذا البيت

ان قلت فى بصرى فثم مدامعى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى
لكن جعلت له المسامع موضعاً
وحجبتها عن عدل كل عدول
الى أن يقول متخلصاً بعد أن وصف الروض
روض تعاوده السحاب كأنه
متعاود من عهد اسماعيل
فسه الى الاعراب تعلم أنه
اولى من الاعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت
فيهم وحاز لغات كل قبيل

قال : يصونه فى استه : وان الرمادى لما بلغه قول المتنبي
كفى بجسمى نحولاً أنى رجل
لولا مخاطبتي اياك لم ترنى
قال - وأكرم الله مع القارىء - اظنه ضرورة

فالشرق خال بعده وكأنما
نزل الخراب بربعه المأهول
فكانه شمس بدت في غربنا
وتغيبت عن شرقهم بأفول
ياسيدى هـذا ثنائى لم اقل
زوراً ولا عرّضت بالتنويل
من كان يأمل نائلاً فانا امرؤ

لم ارج غير القرب في تأميلي
وبعد ذلك أخذنا في ضروب من الحديث افضت في
نهايتها الى حادث كدر علينا صفاءنا ، وذلك أن أبا عليّ أخذ
ينثر على الحنفل درر أدبه فكان من بين ما جاء في حديثه
أدب عبد الملك بن مروان وأنه قال يوماً لجلسائه : أى المناديل
أشرف؟ فقال قائل مناديل مصر كأنها غرقىء البيض (١)
وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك :

(١) غرقى البيض القشرة الرقيقة التي تعلو البيضه دون قشرها

الاعلى وقشرها الاعلى يقال له القبيض

ما صنعتما - شيئاً افضل المناديل مناديل أخى بني سعد عبدة
بن الطليب اذ يقول

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية

وفار للقوم باللحم المراجيل (١)

ورد واشقر (٢) ما ينثيه طابحه (٣)

ما غير الغلى منه فهو مأكول

نمت قمنا الى جرد مسومة (٤)

اعرافهن لا يدننا مناديل

وانشد الفالى الكلمة فى البيت - اعرافها لا يدننا

مناديل - فما كان من الاديب ابن رفاعه الألبيري - وقد

لاحظنا فى خلقه حرجاً وزعارة (٥) الا أن استعاد ابا على

(١) جمع مرجل وكان حقها المراجل ولكن لما كانت

الكسرة لازمة اشبعها للضرورة (٢) أي ما تغير من اللحم قبل

نضجه (٣) أي ما يؤخره لانه لو آناه لانضجه لان معنى اناه

بلغ به اناه أي ادراكه والعرب لا تنضج اللحم لتمجيل القرى

ومن ثم قال ما غير الغلى منه فهو مأكول (٤) أي معلمة (٥) دراسة

وسوء خلق

البيت مثبتتا مرتين ، في كليهما ينشد اعرافها ، فقام ابن رفاعه وقال - مع هذا يوفد على امير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تفلط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة ، ثم بالانصراف ، فندبه الامير ابن رماحس أن لا يفعل فلم يجد فيه حيلة ، فاضطر ابن رماحس الى أن يكتب الى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى من ابن رفاعه ويشكوه ، فجاء جواب الحكم الى ابن رماحس بما نصه كما اطلعني عليه ابن رماحس

« الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد العراق الينا ، وابن رفاعه اولى بالرضى عنه من السخط فدعه لشانه واقدام بالرجل غير منتقص من تكريمه ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه » (١)

(١) هذه الحكاية واقعة تاريخية حدثت لابي على التالى

عند دخوله الاندلس

الاسطول الاندلسي

« وروح العظمة التي ترفرف عليه »

أسلفنا لك في الرسالة الاولى من هذه الرسائل شيئاً من القول قد يكون مغنياً في معنى الاسطول واثره الصالح في الدولة التي تعنى به ، وان الدولة الفاطمية في افريقية : والدولة الاموية في الاندلس ، لهذا السبب بعينه ولان بلادها واقعة على سيف البحر الرومي « البحر الابيض المتوسط » وبحر الظلمات « المحيط الاطلانطي » قد بذتا سائر الدول في العناية بالاساطيل حتى قبضتا بها على أعنة البحار ، واستولتا ^(١) على ما فيه من جزائر واقطار ، وآصتا بذلك وآصت رعاياهما سادة البر والبحر ، بل ذل الزمان لهم ولانت اعطاف الدهر ، وهذا هو الذي أرهج بين هاتين الدولتين بالفساد . وأرسل بينهما عقارب الاحقاد ، وأثار بينهما نفخ الحرب والجهاد ، حتى لا تكاد الحروب

(١) استولتا

بين الدولتين ينطفيء لهيبها ، فتراهما للثافة من الاسباب
يجردان الجيوش بعضها على بعض ، وتتلاقى اساطيلها
مصرحة بالشر ، ولعلك لم تنس بعدُ حادثة هذا المركب
الاندلسي الذي قُنا فيه من الاسكندرية ، وانه تحرش وهو
ذاهب الى المشرق بمركب للمعز لدين الله الفاطمي وأخذ
ما فيه من بريد وبضائع ، فما كان من المعز الا أن أرسل
اسطولاً كبيراً الى مريض الاسطول الاندلسي في المرية
كما أخبرنا بذلك ونحن في هذا البلد - فعاث فيه عيثاً ، وألحق
به وبالمرية ما ارضاه ونقع غلته وأطفأ لهيبه ، فلم يسع امير
المؤمنين عبد الرحمن الناصر الا الانتقام من المعز ، فأمر
بتجريد الاسطول وحشد المقاتلة والذهاب الى أفريقية
فذهب اليها تحت أمرة حاجبه الوزير احمد بن عبد الملك
ابن شهيد اسطول كبير يُقل عدداً عظيماً من رجالات
الحرب ، فجاج أولاً على مدينة وهران وجمع من فرسان
الاندلس المحتلين بلاد المغرب نحواً من خمسة وعشرين ألف
فارس ثم هجم بالرجالان والفرسان على أفريقية ودارت

بينه وبين رجال المعز ربح الحرب فهزم الانداسيون قبائل
صنهاجة وكتامة ، وكان يتألف منها السواد الأعظم من
جيش الافارقة - وافتفوا آثارهم حتى بلغوا ضواحي تونس
وهي غنية بتجاريتها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود
الاغنياء فحصروها برأ وبحراً والحوافى في الحصر فاما رأى
أهلها أن الخطر محقق بهم عرضوا أن يسلموهم المدينة
وقدموا مبالغاً كبيراً من المال الى الحاجب ابن شهيد ،
وقدموا اليه كذلك أنسجة من كل نوع وطرفاً من الحلى
وذهباً وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير
وأسلحة وخيلاً وعدداً عظيماً من الأرقاء ، ثم غنم عدا ذلك
سفن الميناء واثقالها وضمها الى سفنه وكر راجعاً الى الاندلس

ومن سمنهم التي مضوا عليها وجرت عادتهم بها ان
يحتفلوا بالاسطول عند رجوعه ظافراً من حرب ، فتقوم
الاساطيل باللعاب وحركات بمرأى من عظماء الدولة ومسمع ،
كانها في حرب مع الاعداء ، فاتفق في اليوم الذى وصلنا

فيه الى المرية أن أب الاسطول الاندلسي رافعا أعلام النصر
في هذه الواقعة ، فأمر امير البحر عبد الرحمن بن رماحس
بان تقوم الاساطيل بالعبابها ، فما كان منا إلا أن بادرننا الى
إمتاع أنفسنا بمشاهدة هذه الألاعيب صلبة الامير ،
فذهبنا الى الميناء - ميناء المرية - فوجدنا ثمت في انتظارنا
مركبا كبيرا كأنه رَضْوِي أو ثبير ، أو الامل الكبير ،
فدعينا الى النزول فيه ، ثم أخذ الامير ابن رماحس في أن
يرينا ما في هذا المركب من بروج وقلاع ومناظر وتوايت
ومن منجنيقات ومكاحل بارود ونفط - ومن نوتية ، ومن
مقاتله وأساحة وهلم مما قضينا منه عجبا - وهذا المركب
نوع من الانواع التي يتألف منها الاسطول يسمى
« الشواني » الواحد منه « شونه » وبعد ذلك أخذ هذا
المركب يسير بنا الهويناء في اختيال ، مترجعا ذات اليمين
وذات الشمال . كأنه عروس مجلوة يرفرف عليها روح الجمال
والجلال ، وبعد أن سار بنا في البحر شيئا وقف حيث نشاهد

حركات الاسطول والأعيبه ، وكان الشاطيء ساعته قد
مُغصّ بالنظارة من كل صنف من أصناف الناس ، والزوارق
قد انتثرت على متن البحر من جميع النواحي ، وفيها ما لا يعلم
عديدهم الا الله من الاندلسيين والاندلسيات ، كي يشاهدوا
حركات الاسطول - فكان لذلك منظر تحسر دونه الظنون
وتراجع دون ادراكه الاوهام - منظر يهر دواؤه الفكر ،
ويشيع الروعة في الصدر ، وينتقل من هذا العالم الى عالم
آخر كأنه الخلود

مجال اسود وماهى سفين فيا طيب لهُو ويا منظر
ويا حسن دنيا ويا عز ملك يسوسهما السائس الاكبر
ثم بصرنا بعد ذلك بالاساطيل على اختلاف ضروبها ،
وقد أخذت بصورة شيطانية في ألعيبها ، فاذا رأيت ثم
رأيت كنائن^(١) غير أنها تمرق مروق السهام ، ورواكد^(٢)
هى مدائن ، بيد أنها تمر مرّ السحاب غير الجّهام^(٣)

(١) جمع كنانة جمعة السهام (٢) نوابت (٣) السحاب
الجهام هو الذى لاماء فيه

طياراً إلا أنها جوارح ، لا تصيد إلا الأرواح ، وافراسا
سرعة البرق اللامع ، سوى أنها ذات دُسر وألواح
تتخاذل اللاحاظ في ادراكها

وبحار فيها الناظر المتأمل
فكانها في اللطف فهم ثاقب
وكانها في الحسن حظ مقبل

فيا للجوارى المنشآت وحسنا
طوائر بين الماء والجو عوما
إذا نشرت في الجو اجنحة لها
رأيت به روضا ونورا مكما

ذات هُذب من المجاذيف حاك
هُذبَ بِاكٍ لِدَمعه إسعادُ
حم فوقها من البيض نارُ
كُلٌّ مَنْ أرسلت عليه رَماد

ملاً الحكمة ظهورها وبطونها
فأنت كما يأتي السحاب المغدق
عجبا لها ما رُحلت قبل رعيانها
أن يحمل الأسند الضواري زورق

زأرت زئير الأسد وهي صوامت
وزحفن زحف مواكب في زورق

ترمي بروج ان ظهرت لعدو مخرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه ماء وبه تذكى السكنا (١)

وما زالت الاساطيل تلعب كأنها في سُوح القتال ،

(١) البيتان من ابيات لابن حمديس يمدح بها ابا يحيى الحسن

بن علي بن يحيى يقول فيها

انشأت شواني طائرة وبنيت على ماء مدنا
بروج قتال تحسبها في شم شواهقها قننا

من لدن ذرّ قرنُ الشمس الى أن جاء وقت الزوال

وهنا يجمل بنا أن نجمل لك القول على أنواع السفن
التي يتألف منها الاسطول الاندلسي وُعددها وآلاتها (١)
فمن تلك الاساطيل نوع يقال له « الشواني » جمع الشونة أو
الشيني كما مر بك آنفا - وهي اجفان حربية كبيرة تقام فيها
الابراج والقلاع للدفاع والهجوم - وابرأجها ذات طبقات
مربعة - فالطبقة العليا منها تقف فيها الجنود المسلحة بالقيس

ترمي بروج - البيتين -

وبعدها

ضمن التوفيق لها ظفرا من هلاك عداتك ماضنا
وقوله مخرقة هكذا قرأناها بالخاء المعجمة وامل الصواب
مخرقة بالخاء اى ان ظهرت هذه البروج لعدو في حال احراقها
قتل في التو واللحظة لان معني بطنا اصيب في بطنه يريد مقتله
والسكن النار وتذكي تشعل

(١) راجعنا فيما راجعناه في ذلك رسالة لصديقنا الفاضل

عبد الفتاح افندى عباده

والسهام - وفي الطبقة السفلى الملاحون الذين يجذفون بنحو
من مائة مجذاف ، ويتراوح ما تحمله الشونة من المقاتلة
ما بين المائة والخمسين وبين المائتين - وتجهز الشوانى وقت
الحرب بالسلح والنفطية والازودة بـلـه الجنود البحرية .
ومن أنواع الاسطول نوع يعرف «بالبوراج» جمع البارجة
وهو اكبر من الشوانى - ومثله نوع يقال له المسطحات -
ومن هذه الاساطيل نوع يقال له «الحراقات» جمع الحراقة
وهى مراكب حربية كبيرة قرابة الشوانى بيدان هذه
تماز عن تلك بالمنجنىقات وتلك عن هذه بالقلاع ، فترام
يحملون فى الحراقة مكاحل البارود والعرادات والمنجنىقات^(١)

(١) مكاحل البارود هى المدافع التى يرمى عنها بالنفط
وحاها تتنوع فبعض يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تنخرق الحجر
وبعض يرمى عنه ببندق من حديد زنة عشرة ارطال وزنة مائة
والعرادات جمع عرادة وهى آلة تصغر عن المنجنىق ترمى بالحجارة
او السهام المرمى البعيد وبقدر النفط او العقارب وما اليها .
والمنجنىق آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه

يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء - وهم يعملون الحراقة
في صورة الاسد وفي صورة الفيل وفي صورة العقاب وفي
صورة الحية وفي صورة الفرس كتملك الحراقات التي كانت
للامين بن رشيد ، والتي يقول فيها الحسن بن هانيء

سخر الله للامين مطايا

لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرت براً
سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو
أهت الشدق كالح الانياب
لا يعانیه بالالجسام ولا السو
ط ولا غمز رجله في الركاب

ثقل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر
يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي
فيه الكفة فيخرج الحجر او النفط منه فما يصيب شيئاً الا عصف
به عصفاً

عجب الناس إذ رأوه على صو
رة ليث يمر مر السحاب
الى أن قال يصف هذه المطايا
تستبق الطير في السماء اذا ما
استعجلوها بجيئة وذهاب
ذات سور ومنسر وجناحين
م تشق العباب بعد العباب
وكحراقة طاهر بن الحسين التي يقول فيها بعض الشعراء
عجبت لحراقة ابن الحسين
م - لا غرقت - كيف لا تفرق
وبحران من فوقها واحد
وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها
وقد مسها كيف لا تورق

أما الطرائد^(١) فهي السفن التي تحمل الخيل للاستطول،
واكثر ما يكون فيها اربعون فرساً - وللقوافير^(٢) - فهي
السفن الكبيرة التي تحمل الزاد والسكر والمتاع - والفلائك
والقوارب والشنديات^(٣) فهي من توابع الاستطول كالطرائد
والقراقير

أما عدد الاساطيل وآلاتها ومعداتنا واسلحتها فهي
الرماح والعصي والتراس والزرد والدرق والخذو والمنجنيقات
والعرادات

وقد رأيت الاندلسيين يستعملون في حروبهم البحرية
النار اليونانية، وهي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات

(١) جمع طريدة وقد اخذ الاسبانيون هذا الاسم فقالوا

Tariddo وقال الطليان Tartana وقال الفرنسيون Tartan

(٢) جمع قرقور وهي المسماة اليوم كراكة أخذناها من

الافرنج بعد ان اخذوها من (٣) اخذها الروس فقالوا

Schelaudo والطيان فقالوا Scialaudo والفرنسيون فقالوا

Chaland

والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية
مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة فيقذفون منها السائل
مشتعلا أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من
الكتان الملتوت بالنفط فيقع على السفن فيحرقها حرقا ،
ومن غريب هذه النار انها تشتعل في الماء والهواء كالنفط
- وقد رأيتهم كذلك يستظهرون بالبارود الذي يسمونه
«التلج الهندي» . - ونحن فلم نسمع بأمة من الامم اهتمت
الى هذا «التلج الهندي» قبلهم^(١) - ذلك الى معدات أخرى
لا اظنهم قد سبقوا اليها ، ارايها الامير ابن رماحس في

(١) قال كوندى المستشرق الاسباني : ان المعروف أن
العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ وهم الذين نقلوه الى الاندلس
ومنها اخذه الافرنج - قال : وقد استعمله العرب في محاصرتهم
جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هجرية وفي محاربة الاسبانيين سنة
١٢٤٩ م واستخدمه صاحب غرناطة في حصار باجة ثم نقله عن
العرب في القرن الثالث عشر روجر باكون الانكليزي وغيره
من الكيماويين وأول ما استخدمه الفرنج في واقعة كريسبي سنة
١٣٤٦ وانها منحة عظيمة فتحتها العرب للاوربيين

الشونة التي كنا نشاهد منها حركات الاسطول ، مثل
التوايت المعلقة فوق البروج ، وهي صناديق كبيرة مفتوحة
من أعلاها ، يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون
فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة
بجانب الصندوق فيرمون العدو بها وهم مختبئون في هذه
الصناديق ، ومعهم عدا الحجارة قوارير النفط وجرار النورة
وهي مسحوق ناعم مؤلف من الكلس والزرنيخ يرمون
به الاعداء في مرا كبهم فتعمى ابصارهم بغبارها وقد تلتهب
فيهم التهابا - وقد رأيتهم وهم يرمونهم ايضا بقذور الحيات
والعقارب وبقذور الصابون اللين كي يزلقوا اقدامهم -
ومن حيلهم التي يتخذونها وقاء لهم من اعدائهم انهم يحيطون
المراكب بالجلود أو اللبود المبلولة بالخل والماء أو الشب
والنظرون كي لا يفعل النفط فيها فعله - ومن حيلهم انهم
يجعلون في مقدم المركب هناة كالفأس يسمونها الاجام ،
وهي حديدة طويلة محددة الرأس وأسفلها مجوف كسنان
الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم

المركب يقال لها «الاسطام» فيصير الاجام كأنه سنان رمح
بارز في مقدم المركب فيقطعون مركب العدو به فلا يلبث
حتى ينخرق فينصب فيه الماء فيفرق - ومن تلك الحيل انهم
اذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها
ديكاً وقد يسدلون على المراكب قلوغاً زرقاء ، فلا يرى العدو
مراكبهم التي يشبه لونها لون الماء أو السماء : فسبحان الملمهم
من يشاء ما يشاء ، ويخلق ما لا تعلمون لا اله غيره :

أما رآسة الاساطيل فقد جعلوا على كل اسطول
قائداً ورئيساً فالفائد يدبر أمر سلاحه وحربه ومقاتلته ،
والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجازيف ومعرفة مسالك
البحر وطرقه بواسطة الرهنامج^(١) ويدت الابرة التي هي
من مبتكراتهم ولم يسبقهم اليها سابق فيما علمنا . أما النظر
في الاساطيل كلها فيرجع الى امير واحد من أعلى طبقات

(١) الرهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب الذي يسلك

به الربانية البحر ويهتدون به في معرفة المرامي وغيرها

المملكة يلفبونه أمير البحر أو أمير الماء

وبعد أن أقمنا في المرية ثلاثة أيام بلياليها تحملنا منها في
ركب نخم نبيل موف على الغاية ، في الابهة والروعة والجلال ،
قاصدين الى قرطبة حضرة هذه البلاد ، وكان في طليعة
الركب أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس ، إذ أمره سيدي
الحكم بن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده كما
اسلفنا أن يتلقانا في وفد من وجوه الاندلسيين ويجيء معنا
الى قرطبة مبالغة من الامير حفظه الله في الاحتفاء بنا
وبأبي عيسى القالى البغدادى وبأبي عبدالله الصقلى الفيلاسوف
الذى وصل الى المرية قبل انفصالنا عنها ، وكان فى الركب
من الاندلسيين الرمادى الشاعر وأبو بكر بن القوطية
وأبو بكر الزبيدى وكثير من أدباء الاندلس واعيانها :

وقد بهرنا وسحر اعيننا وملك علينا البابتا مارأيناها في
طريقنا من استبحار العمران في هذا القطر الاندلسى ، فقد

كنا نمر في اليوم الواحد بثلاث مدن وأربع ، وفي حينما سرنا
نرى الحوانيت - في الأودية ورؤوس الجبال - لبيع الخبز
والفواكه والخبز واللحم والحوت وما إلى ذلك من ضروب
الطعام . وكنا نتمتع بتمتعا بالجدول والأنهار ، تحفها
البساتين وصنوف الزرع والنجوم والأشجار ، حتى لظننا أنه
ليس في هذه البلاد صحراء مقفرة . أو أرض غامرة .

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعد إذ أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار
أما القرى والمعاقل والحصون فإنها لا تحصى كثرة ، وقراها
جميلة لتأنق أهلها في أوضاعها وتبديعها لئلا تنبوا العين عنها
لاحت قراها بين خضرة أيكها
كالدر بين زبرجد مكنون

واكثر مدنها مسور من اجل الاستعداد للعدو ،
وفي مدنها لذلك مايبقى في محاربة العدو مايربى على عشرين
سنة : لا متناع معاقلها ودربة اهلها على الحرب .

وكننا في طريقنا نتذاكر الادب ونتناشد الاشعار
ونخوض في ضروب من الحديث لاعلينا اذا نحن آوردنا
شيئا منها في هذه الرسالة ، فمن ذلك أن ابا علي قال من كلمة
له « لما مررت بالفيروان - وأنا اعتبر من أمر به من أهل
الامصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب
تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد كأن منازلهم من
العلم محاسبة ومقايسة ، فقلت إن نقص أهل الاندلس عن
مقادير ما رأيت في افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم
فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الاوطان ، وإن كان لما جئت
الى هنا قضيت عجبا من أهل هذا الافق الاندلسي في
ذكائهم ^(١) » ومن ثم كنا نراه ^(٢) يتغطى عن الاندلسيين

(١) هذه الكلمة هي لابي علي القالي بنصها (٢) اى القالي

عند المباحثة والمناظرة ويقول لهم « إن علمى علم رواية
وليس علم دراية ، نخذوا عني ما نقات فلم آل لكم أن
صححت (١) » ثم فرط منه قول ذهب فيه إلى تفضيل
شعراء المشرق على شعراء المغرب ، فانتدب له أحد الأدباء
ممن كانوا في هذا الركب وقال « إن أهل الاندلس أشعر
الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم
من الأشجار والأنهار والطيور والكثيروس ، لا ينازعهم
أحد في هذا الشأن - أما إذا هب نسيم ، ودار كأس في
كف ظبي رخيم ، ورجم بمّ وزير (٢) وشفق للماء خريز ،
أوردت العشيّة ، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية ،
أو تبسم عن شعاع ثغر نهر ، أو تفرق بطل جفن زهر ،
أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق ، أو وعد حبيب فزار
من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كلماء والراح ،
إلى أن ودع حين أقبل رائد الصباح ، أو أزهرت دوحة

(١) وهذه كذلك للقال (٢) الزير هو اسفل اوتار
العود والذي يليه مثني والذي يليه مثلث والذي يليه بم

السما بزهر كواكبها . أوقوصت عند فيض نهر الصباح
بيض مضاربها ، فأولئك هم السابقون السابقون . الذين
لا يجارون ولا يحقون ، وأيسوا بالمفصرين في الوصف اذا
تعمقت السلاح ، وسالت خاجان الصوارم بين قضبان
الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه
النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء ، وبالجمله فانهم في
جميع الاوصاف والتخيالات ائمة ، ومن وقف على اشعارهم
في هذا الشأن فضلمهم فيه على اصناف الامة ، فقال ابو علي (١)
نعم وفي الحق ما تقول يبيد ان شعراء المشرق فضلا ان
شعرهم اصفى ديباجة ، واكثر ماء وطلاوة ، واسد مسلكا

(١) كل ما وضع على لسان ابي علي وابي عبد الله الصقلي
لأصل تاريخي له وإنما هذا الموضوع برمته هو من وضمننا وقد
زورناه تزويرا لم نسبق فيما نظن اليه ولعلنا قاربنا الحقيقة في
هذه المفاضلة بين شعر المشارقة وشعر الاندلسيين علي اننا لم نر
لاحد قبلنا كلاما في هذا المعنى وسنوفيه حقه في الكلام على
شعراء الاندلس في الرسالة الرابعة من هذه الرسائل

واوضح منهجا ، وأشكل في مبناه بالشعر القديم حتى لا يكاد
يشد عنه قيد شعرة ، وفضلا انه في الاعم الاغاب رصين
متماسك جزل قوي غير مهلهل النسيج - تراغم مع ذلك ذهبوا به
كل مذهب من القول ، وافتنوا في مناحيه ايا افتنان ،
وغاصوا على المعاني غوصا حتى بلغوا في ذلك المبالغ ، ووصلوا
الى الغاية التي لا وراءها ، وانى لا اظن ان لعل بن العباس
الرومى او بشار بن برد او ابى نواس اشباها ونظائر في هذه
البلاد ، على انى مع ذلك لست انكر على الاندلسيين ذكاءهم
وتوقدهم ، وانهم - كما رأيت وكما وصفوا الى - « عرب في العزة
والانفة وعلو الهمة وفصاحة الالسن وابهاء الضمير والسماحة
بما في ايديهم والنزاهة عن الخضوع والاستخذاء - هنديون
في فرط عنايتهم بالعلوم ورغبتهم فيها وضبطهم لها - بغداديون
في نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم وذكائهم وجودة قرائحهم
ولطافة اذهانهم ونفوذ خواطرهم - يونانيون في استنباطهم
للمعانيه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لاجناس
الفواكه وتديرهم تركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بانواع

الخضر وصنوف الزهر - صينيون في اتقان الصنائع العملية
واحكام المهن الصورية - تركيون في معاناة الحروب
والحدق بالفروسية والبصر بالطعن والضرب «

كبرتْ حول ديارهم لما بدت

منها الشمس وليس فيها المشرق

ولو ابصروا ليلى اقروا بحسنها

وقالوا بأنى فى الثناء مقصر

وهنا انبعث ابو عبد الله الصقلى الفيلسوف وقال
ماتلخيصة . الذى اراه ان شعراء كل قطر من الاقطار
او جيل من الاجيال لابد من أن يتأثروا بالمحيط الذى يحيط
بهم ، وان يصطبغ شعرهم بصبغة ما يرون ويحسون من
حولهم ، فالشاعر الجاهلى او المتبدى فى الجاهلية والاسلام
الذى لاتقع عينه الا على صحراء مقفرة ، اوسماء ماطرة ،
او وحش كاسر ، او غزال نافر ، لم ير ريفاً ، ولم تغذ رقة الخضر
ولم يشبع من طعام ، قد خالط الغيلان ، وانس بالجان ،

وأوى القفر واليراييع والظباء ، فانه حرّى ان لا يقول
الا فى جنس ماهو بسبيله من وصف البيد والمهامه والظبي
والظليم والناقة والجل وما الى ذلك ، فى قول مونق مشرق
واضح الطريقة لا تعمل فيه ولا كلفة ، يوائم امزجتهم
وطبائعهم ، ويلأثم المحيط الذى فيه عاشوا ، والجو الذى فيه
درجوا ، والفطرة الاولى التى فطروا عليها ، والسذاجة التى
هى من خاص صفاتهم ، وقد يكون لهم مع ذلك الحكمة
البارعة ، والكلمة الرائعة ، والمثل السائر ، والموعظة الحسنة ،
مما يبهرا عرق المتحضرين ويصيب منهم اقصى غايات
الاعجاب والاكبار ، ولكنه الوحي والالهام الذى تأنسه
الفطرة القوية النقية البريئة ، ويؤتى الطبيعة الكريمة
ما يؤتى سهوا رهوا ، وليس هو بنتاج العقل المسموع ولا بمار
المسكات المكتسبة .

« وبعد » فاما المولدون وهم الذين تصح المفاضلة بينهم
وبين شعراء المغرب لانهم جميعا تحضروا وعاشوا فى رونق
النعم واعتكرو بالدنيا واعتركت بهم فالرأى عندي ان يقال

ان الشعر لفظ ومعنى فاما اللفظ فان شعراء المشرق لان
اكثرهم جاور الاعراب وأهل البادية ولقنوا اللغة منهم
والتصقوا بهم ونشّوا في احضانهم وغذوا بلبانهم ترى لهم
الالفاظ المتخيرة ، والديباجة الكريمة ، والطبع المتمكن
والسبك الجيد وكل كلام له ماء ورونق ، وترى شعرهم رصينا
متسقا على استواء واحد لا يتدافع من جهاته ولا يتعارض
من جوانبه ولا يجمع ولا يشتط ولا يأتيه الضعف والهلالة
والاسترخاء من اية ناحية من نواحيه : واما المعنى فان فحولة
شعراء المشرق الذين افتنوا في المعاني افتنانا وغاصوا عليها
وامعنوا حتى ظفروا بكل معنى عجيب يعمر الصدر ويذكى
الروح ويشع في دني العقل فتنجاب له ظلمته وتنير نواحيه
وتنفتح مغالقه مثل بشار بن برد وأبي نواس وابن الرومي
وهذه الطبقة فهم انما بلغوا هذه الدرجة لانهم من الموالى
ابناء تلك الامم الحمراء الذين امترسوا بالحضارة قبل العرب
امتراسا وعالجوها وعالجتهم وداوروا صنوفها من الصناعات
والعلوم وما اليها وصرفوا فيها اعنة الفكر وقدحوا لها

زناد الرأي وهلم حتى أننى ذلك على كر الغداة ومرّ العشي
عقولهم، وشجذ اذهانهم واذكى ارواحهم وأكسبهم ملكات
عبقريّة عجيبة، فورث ذلك منهم ابناؤهم وانحدر مع دمائهم
وكان منهم هذا النبوع الذى نرى آثاره في السلام.

وما كاد ابو عبد الله يتم قوائمه تلك حتى صاح ابو بكر
ابن القوطية وقال أشيخنا شعوبى^(١)؛ فقال ابو عبد الله

(١) أى على مذهب الشعوبية والشعوبية- ويسمون انفسهم
أهل العدل والتسوية- يذهبون الى أن الناس كلهم سواء وأن ليس
شعب أفضل من شعب وأن لا فضل للعرب على غيرهم واذ أبى
العرب الا الذهاب الى أنهم أفضل من غيرهم ذهبوا هم كل مذهب
في الطعن على العرب وتنقصوهم وألصقوا بهم كل طاب ومنقصة
ولعل هذا قد نشأ بادية ذى بدء من احتقار العرب هذه الامم
الجرأ من الاطاحم ومن اليهم اذ كان العرب هم السادة وذوى المملكة
والسلطان وكانت هذه الامم عبيداً لهم وموالى أو مستظلين
برايّتهم مستعمرين لهم، ونحن نورد هنا نبذاً من مفاخرات الفريقين
ومحاوراتهم وتطمانهم بعضهم على بعض لانه معنى مستلذ فضلاً أنه
ليس يخلو من فائدة. فمن قول العرب أو المتعصبين للعرب على

المعجم - ويراد بالمعجم كل من ليس بعربي - فمن قولهم : لو لم يكن
منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر
واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان كما في الاثر ان قوماً
يقادون الى حظوظهم بالسواجير « جمع ساجور وهو القلادة أو
الخشبة التي توضع في عنق الكلب » وكذلك جاء في الاثر :
عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة في السلاسل : على أن
تعرضنا للقتل فيهم ، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك
فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبكم
« المكاتبه أن يكاتب الرجل عبده أو أمتة على مال ينجمه » يقسطه
عليه ويكتب عليه انه اذا أدى نجومه « اقساطه » في كل نجم
كذا وكذا فهو حر فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاه
لمولاه الذي كاتبه وذلك أن مولاه سوغه كسبه الذي هو في الاصل
مُولاه « وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلاً من الموالى يصلى به
فقالوا له في ذلك فقال انما أردت أن اتواضع لله بالصلاة خلفه .
وكان نافع هذا اذا مرت به جنازة قال من هذا فاذا قالوا قرشي
قال واقوماه واذا قالوا عربي قال وابلدناه واذا قالوا مولى قال
هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء . . وكانوا لا يكتنونهم
بالكنى ولا يدعونهم الا بالأسماء واللقاب ولا يدعونهم يصلون

على الجنائز اذا حضر أحد من العرب وان كان الذي يحضر غريباً .
وروي أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وعبادته
كلمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبدالله بن عامر صاحب العراق
في تشنيع عامر على عثمان وطمنه عليه فأذكر ذلك فقال له حمران
لاكثر الله فينا مثلك فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك فقليل
له أيدعو عليك وتدعو له قال نعم يكسحون طرقنا ويخرزون
خفافنا ويحكون ثيابنا، فاستوى ابن عامر جالسا وكان متكئا فقال
ما كنت اظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك فقال ليس
كل ما ظننت اني لا أعرفه لا أعرفه . وروي أن اعرابيا من بني العنبر
دخل على سوار القاضي فقال أن أبي مات وتركني وأخا لي وخط
خطين ثم قال وهجينا ثم خط خطأ ناحية فكيف يقسم المال فقال
له سوار ههنا وارث غيركم قال لا قال فالمال بينكم أثلاثا قال
ما أحسبك فهمت عني ، انه تركني وأخى وهجينا فكيف يأخذ
المهجين كما آخذ أنا وكما يأخذ أخي قال أجل فغضب الاعرابي .
ومن قول الشعوبية : اخبرونا ان قالت لكم المعجم هل يعدون
الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة فان زعمتم انه ملك قالت لكم
وان لنا ملوك الارض كلها من الفراعنة والماردة والعمالقة والاكاسرة
والقياصرة وهل ينبغي لاحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي

سخرت له الانس والجن والطير والرياح وانما هو رجل منا، أم هل
كان لاحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الارض كلها وبلغ مطلع
الشمس ومغربها، وكيف ومنا ملوك الهند، وان زعمتم انه لا يكون
للفخر الا بنبوة فان منا الانبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم
ما خلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون
من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر
فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا
بعد هذا ما شئتم وادعوا . ولم تزل الامم كلها من الأتاجم في كل
شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدب بها
وفلسفة تفتجها وبدائع تفتقها في الادوات والصناعات مثل صنعة
الديباج وهي أبداع صنعة واعمب الشطرنج وهي أشرف لعبة ومثل
فلسفة الروم وما اليها وما كان للمرب ملك يجمع سوادها ويضم
قواصدها ويقمع ظالمها وينهي سفيهاها، ولا كان لها قطة نتيجة في صناعة
ولا أثر في فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه المعجم
وذلك أن للروم اشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض وكذلك
الخطابة فانها شيء في جميع الامم وبكل الاجيال اليه أعظم
الحاجة حتى ان الزنج - مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال
الحد وغاظ الحس وفساد المزاج - لتطيل الخطب وتنفق في ذلك

جميع المعجم وان كانت معانيها أجفى وأغاظ وألفاظها أخطأ وأجهل. وقد علمنا أن اخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلاماً وأسهلهم مخرجاً وأحسنهم أداءً وأشدهم فيه تحنكاً أهل مرو. ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب كاروند ومن احتاج الى العقل والأدب والعلم بالمراتب والمبر والمثلثات والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فليتنظر الى سير الملوك، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها وامرارها وسيرها وعللها فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك المقول وغرائب تلك الحكم وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكامات تلك الصناعة

قال الجاحظ ينضح عن العرب : أما الهند فان لهم معاني مدونة وكتب مجلدة لا تضاف الى رجل معروف ولا الى عالم موصوف وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الارض سائرة مذكورة

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق . وكان صاحب المنطق نفسه

بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وبخصائصه . وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة وفي الفرس خطباء الا أن كل كلام للفرس وكل معنى للمعجم فانما هو عن طول فـكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتي اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم

وكل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتجال ، وكأنه الهـام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فـكرة ، ولا استماعة وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببيعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكفون . وكان الكلام الجيد عندهم أظهور وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر . وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من

البيان أرفع . وخطباؤهم أو جز ، والكلام عليهم أسهل . وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ أو يحتاجوا الى تدارس . وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب . وان شيئاً الذي في أيدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان ، والعالم بما سيكون

ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ؛ ومن المزدوج ومالا يزدوج ؛ فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك الا في اليسير والنبذ القليل . ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير . وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الاعراب الخلف ، ومعدن

إني وإن كنت لا أرى لعربي فضلاً على عجمي إلا بالتقوي
وإن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بأبائهم ولا بأحسابهم
ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد همهم ،
فمن كان دنيء المهمة ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من

الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفاق ، أو خطيب مصقع ،
علم أن الذي قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عياناً ، فهذا فرق
ما بيننا وبينهم

فتفهم غنى فهمك الله ما أنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر
قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدي على دينه ، ولا
أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غناً ، من أهل
هذه النحلة . وقد شفي الصدور منهم طول جثوم الحسد على
أكبادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم ، وغلبان تلك المراحل
الفائرة ، وتسمر تلك النيران المضطربة . ولو عرفوا أخلاق كل
ملة ، وزى كل لغة ، وعلمهم في اختلاف أشاراتهم وآلاتهم ،
وشمائلمهم وهياتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلافه ولم
تكافوه ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم .
أهملخصاً من العقد والبيان والتبيين . ويظهر أن هؤلاء الشعوبية
نجمت أوائل الدولة العباسية وإن كانت جرتومتها أقدم من ذلك .

بنى هاشم في ذؤابتها ، ومن أمية في ارومتها ، وقيس في
اشرف بطن منها . ومن ثم يقول الله جل شأنه ان اكرمكم
عند الله اتقاكم ، ويقول رسول الله في خطبة الوداع : أيها الناس
إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء - كلكم
لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى
فاني مع هذا أقول ما قاله ابن المقفع - وقد سأل جماعة من
أشراف العرب - أي الاعم أعقل ، فنظر بعضهم إلى بعض
وقالوا لعله أراد أصله من فارس - فقالوا فارس ، فقال ليسوا
بذلك ، انهم ملوكوا كثيرًا من الارض ، ووجدوا عظيمًا من
الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبت فيهم عقد الامر
فما استنبطوا شيئًا بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في
نفوسهم ، قالوا فالروم : قال اصحاب صنعة قالوا فالصين قال
اصحاب طرفة . قالوا الهند ، قال اصحاب فلسفة ، قالوا السودان
قال شر خلق الله ، قالوا الخزر قال بقر ساعة ، قالوا فقل قال
العرب . فضحكوا - فقال « أما اني ما اردت موافقتكم
ولكن اذفاني حظي من النسبة فان يفوتني حظي من المعرفة

ان العرب حكمت على غير مثال مَنَـل لها ، ولا آثار اثرت
اصحاب ابل وغنم ، وسكان شَعَر وأدَم ، يجود احدهم بقوة
ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ،
ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ،
ويحسن ما يشاء فيحسن ، ويقبح ما يشاء فيقبح ، أدبهم
نفوسهم ، ورفعتهم هممهم ، واعلتهم قلوبهم وأسننتهم ، فلم
يزل حياء الله فيهم وحبائهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر
وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر
وافتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، على الخير فيهم ولهم
فقال ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة
للمتقين ، فمن وضع حقهم خسر ، ومن انكر فضلهم خسر
ودفع الحق باللسان . اكتب للجنان »

بيد أن العرب لم يكن لهم بادي ، ذي بدء دراية
بالحرف والصناعات ، وبالعلوم وتعلمها الذي هو في عداد
الصناعات ، وذلك لمكانهم من البداوة ، ورسوخ اقدامهم
فيها ، ومن ثم كانت الشريعة الاسلامية - اذ كانت القوم

أكثرهم أميين - تتناقل في صدورهم - وجري الأمر على ذلك أزمان الصحابة والتابعين - فلما بعد النقل من دولة الرشيد فما بعد احتياج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الإسلامية ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع، وهو معلوم أن الصنائع من منتحل الحضرة، والعرب أبعد الناس عنها والحضرة لذلك المهتم المعجم أو من في معنائهم من الموالي، فكان صاحب صناعة النحو سيديويه ثم الفارسي من بعده ثم الزجاج، وكلهم عجم في أنسابهم، وكذا حملة الحديث وعلماء أصول الفقه وعلماء الكلام والمفسرون، وأكثر فقهاء الأمصار مثل الحسن بن أبي الحسن ومحمد بن سيرين فقيهي البصرة وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبيرة وسليمان بن يسار فقهاء مكة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح فقهاء المدينة وربيعة الرأي وابن أبي الزناد فقهاء

قباة وطلاوس وابن منبه فقيهي اليمن وعطاء بن حبيد الله
فقيه خراسان ومكحول فقيه الشام والحكم بن عتيبة
وعمار بن ابي سليمان فقيهي الكوفة وهلم ، وباجلة لم
يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر بذلك مصداق
قوله صلى الله عليه وسلم لو تعاق العلم باكتاف السماء لزاله
قوم من أهل فارس ، واما العرب الذين ادركوا هذه
الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداة فقد شغلهم
الرأس في الدولة وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام
بالعلم والتطريف ، فانهم أهل الدولة وحاميتها واولوا سياستها
مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم بما صار من جملة
الصنائع ، والرؤساء ابدأ يستنكفون من الصنائع والمهن
ومناجرت اليها ، ودفعوا ذلك الي من قام به من العجم والمولدين
في كان امتراس العجم من القديم لتقديم بالحضارة وما
تستتبعه من العلوم والصنائع سببا في كبرهم وفطنتهم
ونماء عقولهم ورجحان احلامهم ومرآة ملكاتهم على

الاستنباط والتخريج والتماس الحيل وتوليد المعاني ، ومن ثم
كان شعر الموالي منمازا عن شعر العرب الاقحاح باستفتاح
اغلاق المعاني الدقيقة العبقريات والافتنان فيها وتلوينها بكل
لون ، وهالك شعر بشار وأبي نواس ومروان بن ابى حفصية
وابن الرومي ومن اليهم من الشعراء الموالي تر الشاهد
الصدق لما اقول ، وعرب الاندلس منذ فتحهم هذه البلاد
إلى وقتنا هذا لا تزال نزعتهم عربية في كل شيء حتى في
شعرهم إلا ما اكتسبتهم إياه طبيعة بلادهم وخصوبتها ، فمن
ثم كان فرق ما بين شعرهم وشعر المشاركة في الجملة

وبعد أن اتم ابو عبد الله كلامه افضى بنا الحديث إلى
ذكر الغزال الشاعر الاندلسي الظريف - وملحه ونوادره
وهذا الغزال - كما أخبرنا ابن القوطية - هو يحيى بن حكم
البكرى الجياني الملقب بالغزال لجماله ، وقد كان في المائة الثالثة
من بنى بكر بن وائل ، وكان حكيمًا شاعرًا عرافًا ، وكان آية
في الظرف وخفة الروح ، وجهه الأمير عبد الله بن الحكم

المرواني إلى ملك الروم فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه أن يناديه فتأبى ذلك واعتذر عنه بتحريم الحر ، وكان يوماً جالساً معه وإذا بـتـرـوـجـة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسناً فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدّثه وهو لاه عن حديثه ، فأنكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له عرفه انى قد بهرني من حسن الملكة ما قطعني عن حديثه فانى لم أرقط مثلاً وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته إلى الحور العين فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله وأمرت للترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الخلقان وتجشم المسكروه فيه مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان عرفها أن فيه اكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زُبر قوى واشتد وغلظ ، وما دام لا يفعل به ذلك فانه يبقى رقيقاً ضعيفاً ، فضحكت واستظرفته . ومن نوادره أنه أرسل مرة سفيراً إلى بلاد المجوس « اسوج ونروج » وقد قارب الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولكنه

كان مجتمع الأشد فسألته زوجة الملك يوماً عن سسنة فقال
مداعباً لها عشرون، فقالت وما هذا الشيب فقال وما تنكرين
من هذا، ألم ترى قط مهرأ ينتج وهو أشهب، فأعجبت
بقوله فقال في ذلك - واسم الملكة تود -

كلفت يا قلبي هوي متعبدا

غالبت منه الضيفم الاغلبا

أنى تعلقت مجوسية

تأبى لشمس الحسن أن تغربا

اقصى بلاد الله في حيث لا

يلفى إليه ذاهب منهجا

ياتود ياورد الشباب الذي

تطلع من ازرارها الكوكبا

يا بآبي الشخص الذي لا ارى

احلى على قلبي ولا اعذبا

ان قلت يوما ان عيني رأت

مشبهه لم اعد ان اكذبا

قالت ارى فوديه قد نورا
دعابة توجب ان ادعيا
قلت لها ما باله انه
قد ينتج المهر كذا اشهبها
فاستضعكت عجا بقولي لها
وانما قلت انكي نعجا
ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحككت وامرته
بالخضاب ففدا عليها وقد اختضب وقال
بكرت تحسن لي سواد خضابي
فكان ذلك اعادني الموهباني
ما المشيب عندي والخضاب لواصف
الا كشمس جللت بخضاب
تخفى قليلا ثم يقشعها الضباب
فيصير ما استترت به لذهاب
لانك كرى وضح المشيب فانما
هو زهرة الافهام والالباب

فلدى ما تهوين من زهر الصبيا
وطلاوة الاخلاق والآداب
ومن شعر الغزال الهين اللين الذى يرتفع له حجاب
السمع ، ويوطأ له مهاد الطبع كما يقولون قوله
قالت أحبك قلت كاذبة
غُرِّيَ بهذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست اقبله
الشيخ ليس محبه أحد
سيان قولك ذار وقولك
م أن الريح نعقدتها فتنعقد
اوان تقولى النار باردة
اوان تقولى الماء يتقد
وقوله
لا ومن اعمل المطايا اليه
كل من يرتجى اليه نصيبا

ما أرى ههنا من الناس إلا
تملبـاً يطلب الدجاج وذبيـاً
أو شبيهاً بالفظ ألقى بميـه
إلى فارة يريد الوثوباً
وحدثنا أبو بكر بن القوطية قال، كان عباس بن ناصح
النفسي قاضى الجزيرة الخضراء يغدو على فرطبة ويأخذ عنه
أدباؤها فمرت بهم يوماً فصيدته التى أولها
أمرك ما البلوى بمار ولا العدم
إذ المرء لم يعدم تقي الله والـكـرم
حتى مر بهم قوله
نجاف عن الدنيا فما لمعجز
ولا عاجز إلا الذى خط بالقلم
وكان الغزال إذ ذاك فى الحلفة، وكان حدثاً نظاماً متأدياً
متوفداً الفريجة فقال : أيها الشيخ وما الذى يصنع مفعـل مع
فاعل، فقال كيف تقول، فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا
حازم، فقال له عباس والله يابى لقد طلبها عمك فما وجدها .

« تمت هذه الرسالة »

وقد كتبت في قرطبة بقصر سيدي الحكم ولي عهد
المسلمين ، وابن مولانا عبد الرحمن الناصر أمير
المؤمنين ، وذلك في شهر اغشت الرومي سنة
ست وخمسين وتسعمائة ، الموافقة سنة
خمس وأربعين وثلثمائة هجرية



